ثم تاب عليهم ليتوبوا

نظرات في أحاديث التوبة

فضيلة الشيخ/ د. محمد الدبيسي

حفظه الله وغفر له

الطبعة الأولى

رمضان ١٤٣٦ هـ/ يوليو ٢٠١٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمدُه ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له ومن يُضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ

وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعدُ...

فإنَّ أصدقَ الحديث كتابُ الله تعالى، وخيرَ الهدي هديُ محمد ﷺ، وشرَّ الأمور مُحْدثاتُها، وكلَّ محدَثة بدعةٌ، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

اللهم صلِّ على سيدنا محمد النبي، وأزواجِه أمهاتِ المؤمنين، وذريته وأهل بيته، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد (١).

فإنه لا يزال يحيط بأهل الإيمان تلك الأحوال، وإنه لا رفع لذلك إلا بالمبادرة إلى فعل الخير، والمسارعة والمنافسة والمسابقة إلى الخيرات ليفرج الله الصخرة عن أهل الإيمان.

ولا يستطيع المرء السير إلى الله تعالى - فضلاً عن أن يسارع إليه - إلا أن يكون تائبًا، وهو قوله سبحانه : ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ

---

(١) حديث خطبة الحاجة رواه أبو داود (٢١١٨) من حديث ابن مسعود، ط ١، دار الكتب العلمية، ١٣٣٨هـ، والحديث صححه ابن العربي في عارضة الأحوذي (٣/٢٧) والذهبي في المهذب (٣/١١٤٢).

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ ...﴾ [هود : ١١٢]، ومعناه أن من تاب هو من يستطع الاستقامة.

لأنه من تحمل بالذنوب والمعاصي والمخالفات كيف يستقيم؟! كيف يسير وقد تحمل بهذه الأحمال والأثقال والأوزار؟! كيف يسير بهذا الثقل الشديد على قلبه ونفسه وبدنه؟! لن يستطيع السير، ومن ثم لا يسير إلا أن يكون تائبًا لله تعالى.

فموضوع التوبة ينبغي أن يكون شغل المؤمنين الشاغل، الذي ينبغي أن يلاقوا به ربهم سبحانه وتعالى، أما من لم تخطر التوبة على باله أو ذهنه فهو يسير هكذا، لا يفكر فيما هو فيه، فنرجو الله تعالى العفو والعافية.

وذلك لأن التوبة واجبة على كل حال وأنه لابد من استصحاب التوبة حال السير إلى الله تعالى، ففي أول المنازل ووسط المنازل وآخر المنازل لابد من استصحاب التوبة؛ لأنه سبحانه وتعالى قال: ﴿ ... وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ ﴾ [الحجرات : ١١] ؛ لأنه لا يخلو امرئ من ذنب ومن تقصير ومن تفريط ومن غفلة، سواء في ظاهره أو في باطنه أو في قلبه،

فتأخير التوبة نفسه هو ذنب، فالتوبة لا بد أن تكون على الفور، ما أن يذنب فيتوب، إن أخَّرها المرء فكأنه مُصِرّ على الذنب لم يخرج منه.

وشرط المغفرة: ﴿ ... وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ ...﴾ [آل عمران : ١٣٥]، فالإصرار هو ترك التوبة، لذلك لزمت التوبة فورًا كما قال أهل العلم.

فالتوبة هي باب المسارعة إلى الخير، واقتناص هذه الفرصة القصيرة من الزمان الذي يحياه المرء في طاعة الله تعالى؛ ليفوز بسعادة الأبد، لذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (**أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب إليه في اليوم وأستغفره أكثر من سبعين مرة**)[٢]، وهو لا ذنب له صلى الله عليه وسلم ولكن هذه المسألة متعلقة بالدرجات العالية، ومتعلقة بتعهد المؤمنين بالموعظة والتربية والنصيحة، وأخذ أيديهم إلى الله تعالى، وتبيين الطريق لهم.

---

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) ، ولفظه (عن ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ فَإِنِّي أَتُوبُ فِى الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ »).

لذلك جاءت هذه الرسالة لنبين فيها بعض المعاني التي جاءت في أحاديث التوبة، وهي حديث قاتل المائة نفس، وحديث المرأة التي أصابت حدا من حدود الله فجاءت للنبي صلى الله عليه وسلم ليطهرها وحديث توبة كعب بن مالك رضي الله عنه، وفي النهاية أشرنا إلى بعض المعاني التي تبين عظم قدر التوبة في حديث الفرح الإلهي بتوبة العبد.

وبعد:

فإننا نرجو في وجه الله الكريم أن يمنَّ علينا بقبول جهدنا الضئيل في هذه الرسالة المتواضعة، وأن ينفع بها قائلها وقارئها وكاتبها وناشرها، ونلتمس العذر من القارئ على ما قد يصادف فيها من أخطاء، ورحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا.

مسجد الهدي المحمدي

٢٥ رمضان ١٤٣٦ هـ



الحديث الأول:

توبة قاتل المائة نفس: جاء تائبا مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ - رضي الله عنه - أَنَّ رَسُولَ الله - صلى الله عليه وسلم - قَالَ: (كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْساً، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلى رَاهِب فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتسْعِينَ نَفْساً فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لا، فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مائَةً. ثَمَّ سَأَلَ عَنْ أعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فقال: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوبَةِ، انْطَلِقْ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاساً يَعْبُدُونَ اللهَ تَعَالَى فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ، وَلا تَرْجِعْ إِلى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوْءٍ. فَانْطَلَقَ حَتَّى إذا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ المَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلائِكَةُ العَذَابِ فَقَالتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جاءَ تَائِباً مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلى الله تَعَالَى. وَقَالَتْ مَلائِكَةُ العَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ. فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُوْرَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوْهُ بَيْنَهُم أيْ حَكَماً فقَالَ:

قِيْسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ فَإِلى أيتهما كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ؟ فَقَاسُوا فَوَجَدُوْهُ أدْنى إِلى الأَرْضِ التَّي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ).[٣]

وفي رواية في الصحيح: " **فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر، فجعل من أهلها** ".[٤]

وفي رواية كذلك في الصحيح: " **فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقاربي أو أن تقربي** ".[٥] وقال: " **قيسوا بينهما، فوجدوه أقرب إلى هذه بشبر، فغفر له** ".[٦]

وفي رواية: " **فناء بصدره نحوها** ".[٧]

بعض معاني الحديث:

وبداية الكلام لمن يسمع الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كان يوجد شخص، وقتل تسعًا وتسعين، فدلوه على

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٤/ ٢١١٩، رقم ٢٧٦٦).

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٦٦).

(٥) أخرجه مسلم (٢٧٦٦).

(٦) أخرجه مسلم (٢٧٦٦).

(٧) أخرجه البخاري (٣٤٧٠).

راهب فوجده لا يعرف شيئًا؛ لأنه راهب ترك العلم وعمل بالعبادة فقط، فقال له: ليست لك توبة، فقتله، فأصبحوا مائة نفس، فذهب للعالم فقال له: هل لي توبة؟ قال: نعم، ولكن اترك هذه الأرض واذهب إلى الأرض الصالحة، واعبد ربك فيها. هكذا شرح الحديث، أليس كذلك؟ فهذا ما نسميه الشرح المختصر المتبادر للذهن. وننظر الآن إلى الكلام ببعض التفصيل.

أولا: لماذا يقص النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه هذه القصة؟!

ونوضح ذلك لكي يتعلم المرء كيف يفهم كلام النبي صلى الله عليه وسلم وسياق الحديث والمعاني والحكم، وما توحي به هذه المعاني.

وذلك لأن المرء يجب أن ينتبه لكلام النبي صلى الله عليه وسلم، فإن قال: " **كان فيمن كان قبلكم رجل قتلاً تسعة وتسعين نفسًا** "، فمعنى الكلام: أتصدقون؟؟ كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا... ثم حدث كذا وكذا، انظروا ماذا حدث !!

فلما حكى لهم النبي - صلى الله عليه وسلم - هذه الحكاية، لم يكن ذلك من أجل التسلية، أو من أجل قضاء الوقت والسمر، وإنما ذكر لهم هذه القصة لمعنى مقصود في هذه الجلسة بالذات يريده منهم - صلى الله عليه وسلم - لا من أجل الحكاية فقط.

والمعنى الممكن الذي يريد النبي صلى الله عليه وسلم أن يوصله لهم هو: **لا يقنط أحد من رحمة الله**، فإن كان الذي قتل مائة نفس قد غفر الله تعالى له، فلا يقنط صاحب ذنب من توبة الله تعالى عليه.

وأهمية ذلك المعنى أن الصحابة كانوا أشد الناس تحريًا في أمر المعصية، فكان من يذنب ذنبًا صغيرًا يظن أن الدنيا قد انتهت، وأنه فعل ما يكون سبب هلاكه في الدنيا والآخرة، حتى أن الله تعالى أنزل قوله: ﴿ **قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ** ...﴾ [الزمر : ٥٣].

لما نزل قوله تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ** ...﴾ [الأنعام : ٨٢]، شق ذلك على أصحاب

النبي : أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟! نزلت قاصمة الظهر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنه ليس بذلك، ألا تسمعون إلى قول لقمان: ﴿ ... إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان : ١٣][٨].

وفي حديث كعب بن مالك في باب التوبة عندما تخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يتخلف متعمدًا، ولكنه سوَّف ومنى نفسه بركوبته، وبأنه شاب جَلد شديد، وقال: غدًا ألحق بالنبي صلى الله عليه وسلم، بعد غد ألحق بالنبي صلى الله عليه وسلم، فتخلف عن تبوك[٩]، فماذا صنع الله بالثلاثة الذين تخلفوا: ﴿ ... حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ

---

(٨) أخرجه البخاري (٣١٨١)، ومسلم (١٢٤)

(٩) أخرجه مسلم (٢٧٦٩) في حديث الثلاثة الذين خلفوا وهو حديث طويل، نجتزئ منه بما يلي: (قَالَ كَعْبٌ: فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيُ اللهِ وَغَزَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتْ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا فَأَقُولُ فِي نَفْسِي أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا فَقُلْتُ أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا ثُمَّ غَدَوْتُ ثُمَّ رَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ).

أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ...﴾ [التوبة : ١١٨]، وهذا من أجل التخلف فقط !

وفي غزوة أحد كان الصحابة من شدة خوفهم من ذنب واحد فقط، وهو أنهم لم يستجيبوا لكلام النبي صلى الله عليه وسلم في ألا يتركوا أماكنهم، من أجل أن الرماة تأَلَّوا-اجتهدوا وظنوا أنهم قد نصروا، -، فنزلوا ليأخذوا الغنائم، فماذا حدث في أحد؟ فما بال القعود هنا الآن؟!

وقد حكى ابن كثير وغيره من المفسرين أن أحدهم ذهب ليسأل عن امرأة مجاهد خرج في سبيل الله، عندما علم ذلك الأجر الذي أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن يخلف المجاهد في أهله بخير [١٠]، فذهب يسأل عن أهل أخيه ، فحدث منه ذنب مع امرأة أخيه هذا بأن سلم عليها أو قبلها أو شيء من هذا ، فرجع

---

(١٠) أخرجه البخاري (٢٨٤٣) ولفظه: (عن زَيْد بْن خَالِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا").

الرجل ونظر إلى أن الله سيعذبه عذابًا ما عذبه أحدًا، فانطلق في الجبال هائمًا يبكي.

فأراد النبي صلى الله عليه وسلم عندما رأى شدة خوفهم من الله تعالى ومن الذنوب والمعاصي - أن يبين لهم رحمة الله تعالى، وقبوله توبة التائب؛ وضرب لهم المثل في أعظم الذنوب، وهي القتل، فقد قال تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [النساء : ٩٣].

فلا بد أن يكون هناك ما يستدعي هذه الحكاية على هذا الواقع بالذات لأسبابها التي يود النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يعلمهم فيها هذه المعاني وغيرها من المعاني التي وردت في بقية الحديث.

ففتح باب الأمل لهؤلاء الخائفين التوابين المخبتين الخاشعين البكائين، فهذا ليس لنا لصعوبته معنا، فمن يفعل معه ربنا سبحانه وتعالى ذلك؟ فهذه القصة كلها ذكرت من أجل هذه النقطة فقط،

وهي قوله – صلى الله عليه وسلم – عن ملائكة الرحمة: "إنه جاء تائبًا مقبلاً بقلبه على الله تعالى"، فهذه فقط ما ذكر من أجلها الحديث.

فمن يأتي تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله ربنا يبعد عنه أرض المعصية، ويقرب منه أرض الطاعة، ويقبضه عليها، وتأخذه ملائكة الرحمة؟ نعم، فهذا ما يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم.

فهو إما يعلمهم، وإما أنهم وصلوا إلى حالة الخوف من الذنوب والمعاصي.

فكان من الممكن أن يحكي النبي صلى الله عليه وسلم قصة أخرى، ولكنه حكى هذه القصة بذاتها في هذا الموقف لما يستدعيه هذا الموقف، من تعليمهم هذا الكلام، **وهذا ما يُسمى بمراعاة الكلام لمقتضى الحال**.

فحال المخاطبين ينبغي أن يكون في حسبان الذي يخاطب الناس، فهذا الخطاب كان لمخاطبين لهم هيئة أخرى غير الهيئة التي نحن عليها، أليس كذلك؟!

فإذا كان يغلب على المخاطبين الرجاء لا نقول لهم: ﴿ ... لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ ...﴾ [الزمر : ٥٣] لأنهم لا يفعلون ذلك من الأصل؟! فلا تخطر التوبة ببال أحد، فالكل يقول: غدًا سنكون أفضل، والبعض يقول: نحن في حال جيد الآن !

فالمطلوب أن نعلم أن المخاطب بذلك ينبغي أن يكون مقصودًا بذلك الخطاب، أي أن يكون هذا الخطاب لائقًا به كما كان لائقًا بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

فهذه القصة ليست لمن قل خوفه، ففي أيامنا هذه الخوف لم يتمكن من القلوب إلى الدرجة التي يقنط فيها المرء من رحمة الله، فالكل يقول: ربنا غفور رحيم، ولا يفكر في التوبة. أليس كذلك؟

فعندما يأتينا الخطاب قائلاً: لا تخافوا إلى درجة القنوط، أي لا تخافوا مطلقًا أم خافوا ولكن لا تصلوا إلى القنوط؟ فمقصوده: أن خافوا الخوف المحمود، وهو الذي يمنع من المكروهات والمعاصي، ويدفع إلى الطاعات والمستحبات، فهذا هو الخوف الذي يريد الشارع لهم أن يصلوا إليه.

فالرسول عندما يقول هذا الخطاب لهؤلاء ينبغي أن يكون هذا المعنى حاضرًا في ذهن المخاطبين في كل زمان، بمعنى أنه يريد أن يقول لهم: **لا بد أن تكون خائفًا، ولكن لا تخرج إلى القنوط**، فهو يريد أن ينقلنا نحن إلى مرحلة الخوف التي كان عليها الصحابة، ولكن الخوف الذي لا يصل إلى مرحلة القنوط، فهذا هو مفهوم الكلام، وهذا المفهوم هو من جعل هذا الرجل يبحث عن التوبة.

فحين يقول صلى الله عليه وسلم: " **كان فيمن كان قبلكم رجلا قتل تسعة وتسعين نفسًا**" أي كان هناك رجل فعل النهاية من الظلم، فلو أن واحدا من بني إسرائيل قتل اثنين أو ثلاثة فيكون فعل جرمًا كبيرًا، فعندما يصل به الجرم إلى أن يقتل تسعة وتسعين فهذه حكاية ينبغي أن تحكى في موقعها الذي يمكن أن يستفيد منها المرء.

ثانيا: دافع التوبة

تقول القصة كما قال صلى الله عليه وسلم: " **قتل تسعة وتسعين نفسًا فسأل عن أعلم أهل الأرض**" والسؤال: هل فعل ذلك بمجرد انتهائه من القتل، أما ماذا فعل؟ نظن أن هناك كلاما

كثيرا في المنتصف، وهو أنه تذكر الآخرة، وأنه سيموت، وأن الله سيعذبه، وأراد أن يبحث قبل أن ينتقل إلى الله تعالى عن السبيل للخلاص من هذه الذنوب والمعاصي. أليس كذلك؟

فالرسول صلى الله عليه وسلم حين يقول: قتل تسعة وسعين نفسا ثم بحث عن التوبة، فذلك الرجل بين حالين:

الأول: أن يكون قد سمع موعظة، وكلاما عن الآخرة والجنة والنار والحساب .. إلخ، كيف تقابل الله تعالى بهذه الذنوب وهذه الدماء وهؤلاء القتلى؟ فالرجل تفكر في الموعظة، وكأنها سيقت إليه، وقال: أنا قاتل مجرم وسأموت، وعاقبة القتل أسوأ العواقب في الآخرة، يا رب تُب علي. فهذه نظرة.

أما النظرة الثانية: أن يكون لطف الله السابق سبحانه وتعالى أدركه، فيكون الله تعالى قد كتب له أن يكون من أهل الجنة، ففي الحديث: "إن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى لا يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة

فيدخلها"[١١]، فهذا مكتوب له في سابق العلم الإلهي، فأدركته رحمة من عند الله تعالى؛ لأنه رجلُ خير.

وهذان الأمران ينبغي أن يكونا في محل التفكر لكل أحد. أن نتفكر في آخرتنا، وما يحملنا على التوبة، والرجوع إلى الله تعالى، وأن ندعو الله تعالى أن يتوب علينا، وأن ننظر فيما يدلنا ويأخذ بيدنا إلى الخير.

فمن الممكن أن يكون هذا الرجل سمع موعظة في جمعٍ من الناس، وقال لنفسه: ما يتكلمون فيه قليل بالنسبة لما فعلت؛ فقد قتلت تسعة وتسعين نفسا، ماذا أفعل لكي أتمكن من التوبة التي تتكلمون عنها؟ من أجل الله والآخرة، ومن أجل الخلاص من

---

(١١) أخرجه البخاري (٣٣٣٢)، ومسلم (٢٦٤٣) ولفظه: (عن عَبْد اللهِ بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ إِلَيْهِ مَلَكًا بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُ النَّارَ).

هذه الذنوب قبل ملاقاة الله والنار والعذاب، ماذا أفعل؟ فقالوا له: اذهب واسأل عن عالم يدلك ماذا تفعل، فلم يتوانَ الرجل، وأسرع لذلك.

فهذه قصة تبين سرعة اللجوء إلى الله تعالى، وسرعة التوبة، والتخلص من آثار الذنوب والمعاصي.

" **فَدُلَّ عَلَى رَاهِب فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْساً فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لا، فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مائَةً** "ذهب الرجل ليسأل عمن يدله بالفعل على طريق الله، ويدله على التوبة، ويأخذ بيده إلى الله تعالى، وهو العالم.

وربما يكون الرجل قد سأل بعض الذين يجهلون الفارق بين العالم وما يظهر عليه هيئة العالم ، فقالوا له: هذا هو من نسأله ونتعلم منها (يقصدون الراهب) والراهب جاهل، ليس له في العلم، إنما يغلب عليه التعبد لا العلم، فقال للرجل لا، ليس لك توبة، فكان القتل نصيبه !

ثالثا: الاستمساك بالتوبة

وهنا يتبادر ذلك السؤال للذهن، هل النبي - صلى الله عليه وسلم - ليس متأثرًا من قتل الراهب؟ من يقرأ قد يفهم ذلك، كأن الرجل من حقه أن يقتل الراهب؟ والنبي صلى الله عليه وسلم عندما يذكر مثل هذا الشيء، فإنه لا شك يذكره وهو متألم من مخالفة الشرع ، متألم من وقوع المعصية والذنب والقتل، ولكن المقصود من كلام النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحال هو أن يبين للسامع أن هذا الرجل القاتل مع كل ما هو فيه، لا يزال مصرًّا على التوبة، فكأن هذا الراهب الذي منعه من التوبة كان أسوأ شيء عليه حتى أنه قتله، أليس كذلك؟

فعندما قال له ذلك، من شدة ضيقة أنه ليست له توبه، ومن شدة حزنه أن باب التوبة أغلق في وجهه ، اسودت الحياة في وجهه، فهو يرى النار والعذاب والموت والقبر والحساب، فلم يدر ماذا يفعل فقتله، وهذا من حرصه على التوبة، ومن حزنه على ألا تكون له توبة، ففي مثل هذا الحال إذا قيل له: باب التوبة مغلق فمن

الممكن أن يقتل الذي قال له ذلك؛ لم يدر ماذا يفعل، فقتل من قال له ذلك، هذا هو المفهوم من السياق.

"**فقتله فكمل به مائة**" ولا يزال مصرًّا على التوبة، لا زال مستمسكًا بأهداب التوبة، لا زال مصرًّا على أن يتجه إلى باب الله تعالى؛ ليتوب عليه، وهذا ما يعلمنا أن المرء لا يكون أبدًا إلا **مستمسكًا بالتوبة، مهما كانت الظروف، ومهما كان ما هو فيه من معاص وسيئات**، فلن يكون أكثر من هذا الرجل الذي ما زال مصرًّا على التوبة، لكي نرى أين نحن! ومن كانت التوبة ليست على باله ولا ترد ذنوبه بخاطره يرى نفسه أين هو ؟!

هذا الرجل ما زال مصرًّا ومستمسكًا، فلو أتى آخر وقال له: ليست لك توبة فسيقتله أيضًا، حتى يجد من يقول له: نعم، لك توبة، وذلك من شدة حرصه على التوبة، وخوفه من هذا المصير الأسود الذي يلاقيه عند الله من غير توبة !

"**ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدلوه على العالم**" فقال: إنه قتل مائة نفس، وهذا من حسن الخطاب، فعندما تقول: أنا اغتبت فلان، فمن حسن الأدب أن تقول: إنه اغتاب شخصًا، فهذا من

أدب الخطاب، أن يقول: إنه فعل كذا وكذا، فهل له من توبة؟ فكان رد العالم كذلك: ومن يمنعه من التوبة؟! أيضًا فيها أدب الحوار، بتوجيه الخطاب إليه؛ لكي لا يسبب له حرجًا، فهذا من حسن أدب الخطاب من السائل والمجيب.

من الممكن أن نتخيل هذا الحوار بين القاتل والعالم:

يقول القاتل: قتلت مائة نفس، فهل لي من توبة؟

يقول العالم: نعم.

يقول القاتل: وقتلت الراهب فهل لي من توبة؟

يقول العالم: نعم.

يقول القاتل: قد فعلت وفعلت؟

يقول العالم: نعم.

والنبي صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك أيضا، فسيدنا أبو ذر يقول: "قال: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق. قال: وإن زنى وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق. قال: وإن زنى

وإن سرق؟ قال: وإن زنى وإن سرق رغم أنف أبي ذر"[١٢]. فهذا مفهوم الكلام.

فالقاتل غير مصدق؛ لأن الراهب قبلَ ذلك قال: ليست لك توبة، فتأتي أنت وتقول: لك توبة، كيف هذا وأنا قتلت مائة نفس؟ ويتبادل معه أطراف الكلام؛ حتى يستوثق لنفسه فعلا أنه له ذلك، وأن ذلك ليس على الله تعالى بكبير.

فليس من المعقول أنه بمجرد أن يسأله عن التوبة، ويقول له: نعم، فيقول له: انصرف إلى مكان كذا وكذا فيه أناس صالحون؛ فهذا ليس مفهوم القصص.

ومن ذلك قصة سيدنا يوسف ، يقول بعد أن رأى الملك الرؤيا: ﴿ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ

(١٢) أخرجه البخاري (٥٨٢٧) ، ومسلم (٩٤)، ولفظه (عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِ ثَوْبٌ أَبْيَضُ وَهُوَ نَائِمٌ ثُمَّ أَتَيْتُهُ وَقَدْ اسْتَيْقَظَ فَقَالَ: مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ. قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ. قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ. قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ، وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا قَالَ وَإِنْ رَغِمَ أَنْفُ أَبِي ذَرٍّ قَالَ أَبُو عَبْد اللهِ هَذَا عِنْدَ الْمَوْتِ أَوْ قَبْلَهُ إِذَا تَابَ وَنَدِمَ وَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ غُفِرَ لَهُ) .

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ۝ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ...﴾ [يوسف : ٤٤- ٤٦]، فهل يوسف كان بجواره؟ بالطبع لا، ولكنه أخذ كل السبل المؤدية إلى السجن لملاقاة سيدنا يوسف ، وقابل سيدنا يوسف، وحكى له ما كان بينهما، وذكره بنفسه، في قصة طويلة.

فلنا أن نتخيل مثل هذه القصة بين القاتل والعالم، وأنه حكى له ظروفه كاملة، وأن أصحاب السوء هم من أعانوه على فعل كل هذه المنكرات، ولذلك قال له العالم: اذهب إلى الأرض الصالحة في مكان كذا وكذا واعبد الله مع من فيها.

فهذا هو منطق القصص والسرد القصصي، والقرآن يتميز في هذه القضايا بأن يقول في القصة مثلا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ۝﴾ [النمل : ٤٥] وسطر آخر، وتنتهي القصة، فهل هذه هي القصة؟ بالطبع لا، فإذا قرأتها في مكان آخر من المصحف لن تجدها بنفس هذا السياق، ولكن تجدها بسياق آخر، وهنا: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ

تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝ قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ ...﴾ [النمل : ٤٦ - ٤٧]، فلا نجد هنا قصة الناقة ولا انتظار الأيام الثلاثة، ولا شيئًا من هذا، فهي قصة طويلة، ولكن لخصت في هذين السطرين.

وهذا أيضًا مثل قصة يوسف، فقد قال: ﴿ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ ...﴾ [يوسف : ٤٧] ثم قال لهم: ﴿ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ۝ ﴾ [يوسف : ٤٩] لم يذكر له أحد هذا في الرؤية لكي يفسره، ولكنه ذكرها من عنده.

رابعا : الفرار من مكان المعصية

انطلق الرجل بعد أن فهم كيف يخرج من هذا الذنب، ومن هذه المظلمة، ولذلك شيء مهم للعلماء وأهل الدين والتربية أن يفهم من الشخص السائل تفاصيل المسألة؛ لكي يُشخِّص له التشخيص الصحيح الذي يكون عونا له على التوبة والعمل الصالح، والخروج مما كان فيه من المعاصي والسيئات.

فلم يقل له لك توبة وسكت، لماذا؟ لأن القاتل في واقع مر، لا يستطيع أن يتوب فيه، فلا بد وأن تكون الدلالة المهمة على صحة السير إلى الله تعالى، وصدق هذه التوبة، وأن يعينه على ذلك، وأن يرشده إلى الحال الذي يأخذه من وبال المعصية إلى مكان الطاعة، وهذا مهمٌ جدًّا.

(ولكن انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى فاعبده معهم) وهذه مسألة في غاية الأهمية لأهل الإيمان، فهذه القصة لها أكثر من معنى:

المعنى الأول: دلالة التائب على العُبَّاد؛ لكي يجلس معهم ويعبد الله، ولا يجلس مع آخرين، فالتوبة تحتاج هذه النقطة بالذات، أنه بعد التوبة يذهب ويعبد الله، فلذلك قال الله: ﴿ **إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَٰلِحًا** ...﴾ [الفرقان : ٧٠] والإيمان ليس فيه خلاف، فالمعنى: إلا من تاب وعمل صالحا، فالإيمان لا بد أن يكون موجودًا؛ والمطلوب التوبة والعمل الصالح.

المعنى الثاني: (ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء) وهذه مسألة في غاية الأهمية من ناحيتين:

الأولى: كيفية أن يقطع المرء بينه وبين أرض المعصية، لا يرجع إليها ولو كانت أرضه ووطنه وأهله وولده، فلا يرجع للمعصية، بل يذهب إلى أرض الطاعة ولا يرجع إلى أرض السوء مرة أخرى.

الثانية: كيفية أن يكون هذا الحال بالذات من أحوال صدق التوبة. فالإنسان قد يظل بعد التوبة يحن إلى أرضه المعصية، ففيها أهله، والشيطان إذا وجد منه أنه سيتوب يقف له، ويقول: ارجع لكي تفعل كذا وكذا، لأن الشيطان لا يذهب إلى أهل المعاصي، وإنما يقف لمن يريد التوبة، ولكل من يريد أن يعمل أي عمل من أعمال الخير. وجرب هذا مع نفسك ! فعندما يجد الله منك صدقا سيعينك، إما إذا لم يجد منك صدقا ووجد التسويف، فلن يعينك، وكل ذلك من وسوسة الشيطان وإغوائه؛ حتى لا يسير المرء إلى الله تعالى. إن هذا التائب لم يفكر في أي شيء من أهل أو مال أو ولد أو أي شيء، ولكن انطلق كما قال له العالم، ولم يتوان، وذهب مباشرة

إلى الأرض التي دله عليها؛ ليعبد الله تعالى مع هؤلاء الصالحين، ويترك أهل الفساد والفسق الذين كانوا السبب في غيه وبعده عن الله تعالى.

ليتعلم المرء كيف يتخلص من الصحبة السيئة، أو الأماكن السيئة، أو الأوضاع السيئة التي هو فيها؛ ليتحقق له صحة التوبة، وليعان على هذه التوبة. أما هذا الرجل فلم يطلب أن ينتظر فترة، كما نفعل نحن مع الذنوب حتى لو كانت صغيرة، ونُسوِّف ويمنعنا الشيطان من السير إلى الله تعالى، ولكنه كان مصممًا على التوبة، فكان في محل عناية الله له، وقوَّاه الله، وأيده؛ لأنه وجده صادق النية والعزم

خامسا: عناية الله تعالى بالتائبين

قال له العالم: اذهب إلى الأرض الطيبة، فأسرع إليها، ولم يُسوف ولم يذكر عللا، ولم يعتذر بأي عذر، ولكن انطلق كما أمره العالم، (**انطلق حتى إذا نصف الطريق**) أي إذا انتصف الطريق أو إذا نصف هو الطريق إذا كان الطريق مفعولاً به، أي حتى إذا قطع نصف المسافة أو نصف الطريق أتاه الموت، والسؤال: هل جاءه

الموت صادقًا أم كاذبًا؟ صادقًا أم مترددًا؟ صادقًا مخلصًا أم بَين بَين؟ نقول: جاءه صادقًا؛ لأنه طوال الفترة الماضية يبحث عن التوبة، فهل تاب أم لا؟ تاب؛ لأن ملائكة الرحمة لم تكن لتأخذه إلا بعد أن تاب إلى الله تعالى، وقَبل الله توبته، وجعل هذه التوبة من أعلى أعمال أهل الإيمان، فالكافر التائب أو المسلم التائب إن مات تكون درجته عالية جدا لو قُبلت توبته، أعلى من درجات آخرين كثيرين، لأن التوبة من الأعمال التي لا يوازيها شيء.

نزلت ملائكة العذاب لكي تأخذه، فوجدوا ملائكة الرحمة عنده! أليس كذلك؟ هل من الممكن أن تكون ملائكة العذاب نزلت قبل ملائكة الرحمة؟ بالطبع لا؛ لأن رحمة الله سبقت غضبه، وهذا سائرٌ إلى التوبة، فالرحمة نزلت أولا، فلنستبشر في رحمة الله تعالى.

نزلت ملائكة الرحمة أولا؛ لتأخذه، ثم نزلت ملائكة العذاب فوجدوهم، فقالوا لهم: نحن أولى به؛ فهو لم يعمل خيرا قط !

والذي يُفهم من الكلام أن الله تعالى قد أوحى إلى ملائكة الرحمة وملائكة العذاب أن يحكموا أول من يأتي أمامهم ، ودليل

هذا أنهم لم يكونوا ليفعلوا ذلك إلا عن أمر الله تعالى، وإلا ما احتكموا إلى أحد، أليس كذلك؟ فاحتكامهم هذا لا بد أن يكون عن علم الله تعالى. فهذا في علم الله السابق، كما أنه في علم الله السابق أنه سيحدث ذلك، وهذا هو الأقرب في شرح الحديث.

لماذا نذكر هذا الكلام؟ لأنه بعد فهم كلام الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم- على قواعد الأصول الصحيحة ينبغي أن يتعلم المرء كيف تكون عناية الرب سبحانه وتعالى بأهل التوبة، حتى نعرف قيمة التوبة، وقيمة التائبين عند الله تعالى، وعناية الله تعالى بهم، ولا شك أن ذلك شيء يجعل المرء يسارع إلى التوبة.

فهذه عناية الله تعالى بهذا التائب، بل بالتائبين جميعًا إذا تابوا هذه التوبة؛ فهكذا تفعل التوبة بأصحابها، وكذلك كانت عناية الله تعالى بهذا التائب تحديدًا، وكيف كانت عناية الله تعالى به على ما كان منه؛ لصحة هذه التوبة، وعلو درجتها، وعظيم ثوابها ومنزلتها.

وليزداد حرص المرء على أن يكون تائبًا، ينبغي أن يعلم أنه لن يتوب أحد إلا بتوبة الله تعالى السابقة عليه. والله تعالى هو الذي

قال ذلك عن الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك: ﴿ ... ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ...﴾ [التوبة : ١١٨] هو أولاً تاب عليهم لكي يتوبوا، فمن لم يتب فذلك لأن الله تعالى لم يتب عليه ليتوب، فلو أن الله تاب عليه فلا بد أن يتوب هو، ولو تاب فالتوبة لا بد أن تقبل؛ لأن الله تعالى هو الذي أرسل له هذه التوبة، فهو القائل: ﴿ ... ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة : ١١٨]، فمن لم يتب هو الذي لم يوفق للتوبة.

لذلك فالمرء عليه جزء مهم، وهو لماذا لم يتب الله عليه أولًا؟ لا بد أن يتحقق المرء بما عليه أولا حتى يتوب الله عليه.

هذا الرجل قتل الراهب لما أخبره بأنه ليس له توبة؛ وذلك من شدة حرصه على التوبة، وهذا دليل على حزنه الشديد من عدم وجود التوبة، وهذا يدل على الحرص الشديد على التوبة؛ حتى لا يقصر في الأخذ بأسباب التوبة.

فهذا الرجل ظل مستمسكًا بطلب التوبة إلى أن مات قبل أن يصل إلى البلدة الطيبة، أليس كذلك؟ هل فرط في التوبة؟ **هل**

استسلم وترك التوبة بسبب وجود العوائق؟ كلا، فهذه هي الجزئية التي تعني المكلفين في الأخذ بها ليتوب الله عليهم سبحانه وتعالى، لا بد أن يظهر المرء من نفسه هذا الحال: (**جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى**) من لم يأت كذلك فليست له توبة !

هكذا قالت ملائكة الرحمة: **جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى**، وهذه هي الفائدة التي ندندن حولها، فهو مصمم على التوبة، ومستمسك بها، و(مستقتل) في طريقها، ومهما كان من عوائق تركها، ومهما كان من بذل بذله، فجاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله.

فمن يريد التوبة ولا يتحقق فيها بمعاني التوبة، ولا يجد عناية الله به، وتوفيق الله له وحفظه - فهل جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله؟! هذه مشكلتنا، فلا توبة إلا أن يكون المرء مقبلا بقلبه كله إلى الله تعالى. فإن لم تهتم أنت بنفسك لن يهتم بك أحد.

هل توبتنا هكذا؟ لأن هذا التائب عندما اختصمت فيه ملائكة العذاب وملائكة الرحمة زحزحه الله شيئا ما إلى البلدة

الصالحة (فنأى بصدره..) تحرك وهو ميت على أحد التفسيرات لهذه الرواية، وعلى الرواية الأخرى للحديث: (قال الله تعالى لهذه: تباعدي، وقال لهذه: تقربي) ثم قاسوا بينهما ، وأنزل الله ملكا في صورة آدمي؛ ليحكم بينهما، وحرك التائب وزحزحه، كل هذا؛ لأنه جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله تعالى.

فنحن إذًا نتحسر على توبتنا، فهو قد جاء بقلبه كله، ليس في قلبه شيء آخر إلا التوبة، إلا الله سبحانه وتعالى، ليس في قلبه شيء آخر مما في قلوبنا: الدنيا والهوى والنساء والأكل والشرب والسفر ... إلخ مما يشغلنا حتى في صلاتنا !

(جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى) فقبضته ملائكة الرحمة.

هذه أهم المعاني التي ينبغي أن يستحضرها المرء في كل آن وحين، ليعلم أن التوبة لازمة على الفور، وأن التوبة لازمة في كل وقت، لأنه لا أحد يخلو من الذنب والمعصية والغفلة ، فلا ينبغي أن يخلو أحد من التوبة؛ ومن ثم لزمت التوبة في كل حال، ولزمت على الفور.

وحديث النبي – صلى الله عليه وسلم – يدل على هذا المعنى:

(أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه؛ فإني أتوب إليه في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة)[13]، وهو ليس له ذنب –صلى الله عليه وسلم– وإنما التوبة في حقه – كما ذكرنا – هي التوبة والاستغفار لرفع الدرجات، والدليل على ذلك أن لا يذنب قط – صلى الله عليه وسلم – والله تعالى هو الذي أمره بأن يقول هذا ﴿ **قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝** ﴾ [الزمر : ١٣] وغيرها من الآيات.

---

(١٣) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) ، ولفظه (عن ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ –صلى الله عليه وسلم– : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللهِ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ »).

الحديث الثاني:

توبة المرأة التي زنت: هل هناك أفضل ممن جاد بنفسه لله عز وجل؟

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ أَتَتْ نَبِيَّ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- وَهِيَ حُبْلَى مِنَ الزِّنَى، فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ، فَدَعَا نَبِيُّ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- وَلِيَّهَا فَقَالَ: «أَحْسِنْ إِلَيْهَا، فَإِذَا وَضَعَتْ فَائْتِنِي بِهَا». فَفَعَلَ فَأَمَرَ بِهَا نَبِيُّ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- فَشُكَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهَا، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا نَبِيَّ اللهِ وَقَدْ زَنَتْ؟! فَقَالَ: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا للهِ تَعَالَى».[14]

---

(١٤) أخرجه مسلم (٣/ ١٣٢٤ ، رقم ١٦٩٦) ، ولفظه (عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ أَتَتْ نَبِيَّ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- وَهِيَ حُبْلَى مِنَ الزِّنَى، فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ، فَدَعَا نَبِيُّ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- وَلِيَّهَا فَقَالَ: «أَحْسِنْ إِلَيْهَا، فَإِذَا وَضَعَتْ فَائْتِنِي بِهَا». فَفَعَلَ فَأَمَرَ بِهَا نَبِيُّ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- فَشُكَّتْ عَلَيْهَا ثِيَابُهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ، ثُمَّ صَلَّى

وكما كان المعنى المهم في حديث قاتل المائة أنه جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى – كان المعنى المهم في هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: (**هل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل؟!**).

بعض معاني الحديث:

وأبي نجيد، هو الصحابي الجليل عمران بن حصين[١٥] – رضي الله عنهما – أبوه صحابي أيضًا: والأقرب أن الصحابة كان

عَلَيْهَا، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: تُصَلِّي عَلَيْهَا يَا نَبِيَّ اللهِ وَقَدْ زَنَتْ؟! فَقَالَ: «لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا للهِ تَعَالَى»).

(١٥) عمران بن حصين ابن عبيد بن خلف . القدوة الإمام ، صاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم –أبو نجيد الخزاعي . أسلم هو وأبوه وأبو هريرة في سنة سبع . ولي قضاء البصرة ، وكان عمر بعثه إلى أهل البصرة ليفقههم؛ فكان الحسن يحلف : ما قدم عليهم البصرة خير لهم من عمران بن الحصين. وقال مطرف بن عبد الله : قال لي عمران بن حصين : أحدثك حديثا عسى الله أن ينفعك به : إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –جمع بين الحج والعمرة ، ولم ينه عنه حتى مات ، ولم ينزل فيه قرآن يحرمه ، وأنه –عمران– كان يسلم علي – يعني الملائكة –قال : فلما اكتويت ، أمسك ذلك؛ فلما تركته ، عاد إلي . وقد غزا عمران مع النبي – صلى الله عليه وسلم –غير مرة . وكان ينزل ببلاد قومه ، ويتردد إلى المدينة . قال أبو خشينة ، عن الحكم بن الأعرج ، عن عمران بن حصين ، قال : ما مسست ذكري بيميني منذ بايعت بها رسول الله ، صلى الله عليه وسلم. وعن مسلمة بن علقمة ، عن الحسن : أن عمران بن حصين أوصى لأمهات أولاده بوصايا ، وقال : من صرخت علي ، فلا وصية لها توفي عمران سنة اثنتين وخمسين – رضي الله عنه" . مسنده :" مائة وثمانون حديثا اتفق الشيخان

يتناقشون في معنى التوبة فذكر لهم أبو نجيد هذا الحديث، ومن الممكن أن يكون سبب ذلك اختلاف الناس في حكم من أتى حدًّا هل يجوز له أن يأتي للحاكم ليطهره؟ وهل يجوز له إن أتى حدًا أن يستتر؟ كل هذه المعاني في الأحكام المتعلقة بالحديث موجودة في مثل ذلك الحال، فأخبرهم الصحابي بالقول الفصل في الكلام الذي تناقشوا أو اختلفوا فيه هل يجوز أو لا، وحكى لهم الحديث.

أولا: امرأة صادقة في طلب التوبة

(جاءت امرأة) وهي تختلف عن جاء رجل، **فهي امرأة ولكنها حريصة على التوبة والتطهير من الذنب حتى ولو كان فيه إزهاق الروح وهلاك النفس**، قالت: (أصبت حدًّا فأقمه عليَّ)، والنبي - صلى الله عليه وسلم - لا يُقم الحد على أحد قبل التثبت، ويدل ذلك ما جاء في قصة ماعز الأسلمي الذي زنا، وأخبروه بأن يذهب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ليطهره، وقال له النبي صلى الله عليه وسلم:

له على تسعة أحاديث وانفرد البخاري بأربعة أحاديث ومسلم بتسعة. (انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي، طبعة مؤسسة الرسالة، الجزء الثاني، ص: ٥٠٨ : ٥١٢)

(لعلك قبلت، لعلك.. ، لعلك ..)[16] ، وفي كل مرة يقول له ماعز: لا، إلى أن صرَّح فرُجم، فلما أحس بألم الحجارة هرب، فجروا وراءه حتى رجموه، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: هلا تركتموه، لأنه رجع بعد الإقرار، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يريد له أن يستتر فيستره الله سبحانه وتعالى كما قال: **(إذا أتى أحدكم شيئا من هذه القاذورات فليستتر)** [17] ويتب بشروط التوبة المقبولة.

أما في قصة هذه المرأة فلما أقرت بحملها من الزنى: **(أصبت حدًا فأقمه عليَّ** فدعا النبي – صلى الله عليه وسلم – وليها) ،

---

(١٦) أخرجه البخاري(٦٨٢٤) ، ومسلم (١٦٩٢) ، ولفظه (عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ لَمَّا أَتَى مَاعِزُ بْنُ مَالِكٍ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ أَوْ غَمَزْتَ أَوْ نَظَرْتَ قَالَ لَا يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ أَنِكْتَهَا لَا يَكْنِي قَالَ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَ بِرَجْمِهِ

(١٧) أخرجه الحاكم (٤/ ٤٢٥ ، رقم ٨١٥٨) . والبيهقى (٨/ ٣٣٠ ، رقم ١٧٣٧٩) . قال المناوى (١/ ١٥٥) : قال الحاكم : على شرطهما ، وتعقبه الذهبى فقال : غريب جدًّا ، لكنه فى المهذب قال : إسناده جيد ، وصححه ابن السكن وذكره الدارقطنى فى العلل وصحح إرساله) ، ولفظه (عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا : أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ – صلى الله عليه وسلم – قَامَ بَعْدَ أَنْ رُجِمَ الأَسْلَمِيّ فَقَالَ :«اجْتَنِبُوا هَذِهِ الْقَاذُورَة الَّتِي نَهَى اللهُ عَنْهَا ، فَمَنْ أَلَمَّ فَلْيَسْتَتِر بِسِتْرِ اللهِ وَلْيَتُب إِلَى الله ، فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِ لَنَا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»).

وجدها النبي صلى الله عليه وسلم صادقة تريد التوبة، ولو كان في الصدق وفي التوبة هلاكها، وخروج روحها وذهاب نفسها.

وذلك حتى لا نتكاسل عن التوبة، أو نرى من أنفسنا التردد والتواني والأحوال السيئة الذي بسببها ومن أجلها لا يتاب على المرء ولا يوفق للتوبة، فهو لا يريد أن يفعل الأشياء السهلة من أجل التوبة كالصلاة والصيام والصدقة، ولا يأتي صادقا إلى الله تعالى، ويندم، ويقر بعدم عودته إلى الذنب مرة ثانية، ويشهد الله على ذلك، ويبكي على ما كان منه من خطيئته كما قال صلى الله عليه وسلم (**وابكِ على خطيئتك**)[١٨] .

وهذه الأحوال لا يتمكن المرء من القيام بها الآن لسببين:

الأول: أن الله لم يوفقه، **والثاني**: أنه قد ران على قلبه من الذنوب والمعاصي ما أثقل هذا القلب وأتعبه، وحجبه عن السير إلى الله تعالى، فعندما تثقل الذنوب وتزداد على المرء لا يتمكن من

---

(١٨) أخرجه الترمذي (٤/ ٦٠٥ ، رقم ٢٤٠٦) وقال : حسن . وأبو نعيم فى الحلية (٢/ ٩) ، ولفظه (عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، عَنْ عُقْبَةَ بن عَامِرٍ، قَالَ: لَقِيتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقُلْتُ: مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ:"يَا عُقْبَةُ أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ).

التوبة، يتوب من ماذا أم ماذا ؟؟ فتثقل الذنوب كاهله، وتزيد من حمله الذي لا يتمكن به من السير إلى الله.

لذلك فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يتوب كل يوم سبعين مرة، وليس كتوبتنا نحن، ولكن بالمعنى الحقيقي للتوبة والاستغفار.

فقصتنا إذًا: كيف يعترف المرء لربه بالذنب، وكيف يندم عليه، وكيف يسير للتوبة ، وكيف يبذل نفسه فما دونها حتى يتوب الله تعالى عليه.

أما هذه المرأة ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم صدقها وندمها، ورأى منها إرادة تطهير نفسها من المعاصي والذنوب بالتوبة، ورأى هذا الإقبال وهذا الصدق في طلب ما عند الله تعالى ولو كان بأن جادت بنفسها، دعا وليها، وقال: أحسن إليها ! فالذي فعلته هذه المرأة، لا يفعله أحد الآن إلا من رحم الله تعالى، وساق له سبحانه التوبة لأنه كان صادقًا في طلبها.

ثانيا: الإحسان إلى المعترف بالذنب

وهو قوله صلى الله عليه وسلم: أحسن إليها، أي: **لا تسبها ولا تعيِّرها، ولا تفعل معها شيء يسيء إليها**، لأن المنتظر من وليها عندما يأتي بها في هذه الحال أن يكون غاضبًا جدا ، سواء كان أباها أو أخاها؟ وتلك هي الطبيعة العربية في ذلك الحين، ولذلك قال له الرسول: أحسن إليها. فهو الرحمة المهداة، وهذه المرأة تستحق الإحسان؛ لأنها جاءت لكي تقتل من أجل التوبة، ووهبت نفسها لله تعالى. وهذه يجب أن تكون قضية أي إنسان، أن يجود بنفسه من أجل التوبة.

وفي رواية أخرى: (**ارجع بها حتى تفطم ولدها**) [19] ثم جاءت بعد أن فطمته وفي يده كسرة خبز يأكلها، فأمر بها نبي الله – صلى الله عليه وسلم – فشدت عليها ثيابها، فرجمت.

---

(١٩) أخرجه مسلم (١٦٩٥) ، ولفظه (عن عَبْد اللهَّ بن بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: جَاءَتِ امْرَأَةٌ مِنْ غَامِدٍ، فَاعْتَرَفَتْ بِالزِّنَا فَرَدَّهَا، ثُمَّ جَاءَتْ فَاعْتَرَفَتْ فَرَدَّهَا، فَلَمَّا جَاءَتِ الرَّابِعَةَ، قَالَتْ لَهُ: لَعَلَّكَ تُرِيدُ أَنْ تُرَدِّدَنِي كَمَا رَدَّدْتَ مَاعِزَ بْنَ مَالِكٍ، فَقَالَ اذْهَبِي حَتَّى تَضَعِي مَا فِي بَطْنِكِ، فَلَمَّا وَضَعَتْ جَاءَتْ بِهِ تَحْمِلُهُ، فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللهَّ، هَذَا قَدْ وَلَدَتُ، قَالَ: فَاذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ، فَلَمَّا فَطَمَتْهُ جَاءَتْ بِالصَّبِيِّ تَحْمِلُهُ فِي يَدِهِ كِسْرَةُ خُبْزٍ، فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللهَّ، هَذَا قَدْ فَطَمْتُهُ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ – صلى الله عليه

ثالثا: التحمل في سبيل التوبة

وهو المعنى التالي الذي تبينه هذه القصة، وهو: كيف تحملت صابرة هذا الرجم في الله تعالى؟! فلو قيل لأحد اليوم، تحمل في سبيل الله أن تقوم لله تعالى قيامًا طويلًا أو امكث في المسجد يومًا، فلا يتحمل المكث يومًا واحدًا في المسجد، ويتعلل بكثير من العلل والأعذار، ويقول عندي كذا وكذا....أما هذه المرأة فانظر إليها...كيف تحملت هذه الآلام حتى ماتت؟!!

ثم بعد أن رجمت صلى عليها، والمنطق أنها بعد أن ماتت غُسلت وجهزت ، وصلى عليها صلى الله عليه وسلم.

رابعا: كيف يجود المرء بنفسه ليحصل التوبة؟

وقضيتنا قد جاءت في هذا الكلام: لقد تابت توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم.

وسلم – بِالصَّبِيِّ، فَدَفَعَهُ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَمَرَ بِهَا فَحَفَرُوا لَهَا حُفْرَةً جُعِلَتْ فِيهَا إِلَى صَدْرِهَا، ثُمَّ أَمَرَ النَّاسَ يَرْجُمُوهَا، فَأَقْبَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ فَرَمَى رَأْسَهَا، فَتَنْضَحَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِ خَالِدٍ فَسَبَّهَا، فَسَمِعَ النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم – سَبَّهُ إِيَّاهَا، فَقَالَ: مَهْ يَا خَالِدُ لا تَسُبَّهَا، فَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا سَبْعُونَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتُقُبِّلَ مِنْهُمْ).

فهذه التوبة التي لها قيمتها؛ لأنها توبة ضخمة جدا؛ لأن هذه المرأة في درجة سبعين تائبًا من أهل المدينة عند الله تعالى في الدرجات العليا، وليس سبعين فقط؛ لأنه قال: لوسعتهم، أي وتسع أكثر منهم.

لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم: وكأن القائل يقول: كيف يا رسول الله تصلي عليها وقد زنت، فأخبره بأن توبتها لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، وقال: (أرأيت أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى) وهذه هي مشكلتنا.

فقضيتنا إذن اليوم: كيف يجود المرء بنفسه فما دونها؟ فأعلى شيء يجود به المرء لله تعالى هو نفسه، أما غيرها من مال أو ولد فأدنى من نفسه، فهي جادت بأغلى ما يمكن أن يجاد به، وهو مطلوب المؤمنين اليوم؛ لكي يتوب عليه الله تعالى كما تاب على هذه المرأة.

درجة التوبة تحتاج أن يجود لله بما يحقق له سبحانه وتعالى به التوبة، وبما يتفضل الله تعالى به على هذه التوبة، أي: كيف يتفضل

الله تعالى عليه بما يكون سببا لتوبة يتوب به المولى عليه ويقبله سبحانه وتعالى.

فالمطلوب: أن يجود المرء بما يمكن أن يكون سببًا للتوبة، وكل يبحث فيما عنده من عوائق تمنعه من أن يتوب من: ولد ووقت ومال والكسل والتواني .. إلخ، وهذه القواطع والحجب التي تحجب المرء عن رؤية الحق الذي ينبغي أن يسر إليه، أو الحق الذي ينبغي أن يسير به.

كل شخص يعرف لماذا يؤخر التوبة ويسوفها، ويعرف سبب ذلك، وعليه أن يقطع هذه الأسباب ليسير إلى الله تعالى تائبًا مقبلاً بقلبه إليه، أما في هذه فقد المسألة انقطعت قضية التردد في التوبة، **سنموت ونتوب**، لا كما نفعل نحن من تردد ومراجعة.

خامسا: ما الذي حمل هذه المرأة أن جادت بنفسها من أجل التوبة؟

العقل يقول: لماذا لم تستتري؟ تقول: أخاف الله، لا أستطيع أن أنام من الذنب، أخاف العذاب، أخاف النار، أخاف أن أموت

على ما أنا عليه، أليس كذلك؟ لا كما نقول نحن، الفرق بيننا وبينها كبير، لا شيء عندنا يدفعنا إلى التوبة، وأن نجود بأنفسنا لله تعالى.

فهذه النقطة نريد أن نعترف بأننا مقصرون فيها، وهي أن إيمان المرء لم يصل به بعد إلى هذا الخوف الذي يدفعه إلى المسارعة إلى التوبة.

فقضية الإيمان هنا قضية - لا شك - النظر فيها يدل على نقص الإيمان، وضعف الإيمان، والاتكال على العفو، والتسويف في التوبة، وطول الأمل في الدنيا، وعدم الخوف من لقاء الله، وكذلك عدم الخوف من أن يقبض في يومه أو ليلته، كما ذكرنا في حديث النبي - صلى الله عليه وسلم -: (**إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء**)[٢٠] .

---

(٢٠) أخرجه البخاري (٦٤١٦) موقوفًا على عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ولفظه (عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي فَقَالَ كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ.

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ).

فهذه قضية الإيمان التي يتحقق بها الخوف والرجاء والاتكال والرضا واليقين، وهذه المسائل التي يقوى بها القلب، ويتضح له بها مشاهد الآخرة فيراها كأنها أمامه، تجعله خائفا مضربا قلقا مسارعا إلى الله تعالى بالخوف المحمود الذي لا ينتقص من قلبه حتى يلقى الله تعالى؛ ولذلك قال الله فيهم: ﴿ **وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾** ﴾ [الطور : ٢٥ - ٢٧].

سادسا: عناية الله بالتائبين

وكما وجدنا عناية الشارع في حديث قاتل المائة، سخر الله له العالم والملائكة .. إلخ فهذه عناية الله بالتائبين - كذلك في هذا الحديث ظهرت عناية الله تعالى بالتائبين، ظهرت في ماذا؟ ظهرت عناية الشارع في صلاة النبي عليه - صلى الله عليه وسلم - لأنه لو لم يصل عليها لم يكن ليقول: (إنها تابت توبة لو قسمت على سبعين

من أهل المدينة لوسعتهم) فهذه الصلاة منه – صلى الله عليه وسلم – دلت على عناية الشارع بهذه التائبة.

وماذا دل عليها أيضًا؟

قوله – صلى الله عليه وسلم – لوليها: أحسن إليها. فهذا كان الأمر الأول في عنايته بها، ولطفه بها، ورحمته بها – صلى الله عليه وسلم – وكان الأمر الثاني الذي أظهر هذه العناية بالتائبين صلاته عليها ﴿ ... وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ...﴾ [التوبة : ١٠٣]، قال عمر: أتصلي عليها وقد زنت؟! قال: (لقد تابت توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم، هل رأيت أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى؟!).

فهذا هو المعنى الثاني الكبير، وفي الحديث الأول كان قول ملائكة الرحمة: (إنه جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله تعالى) وعرفنا ما فيها من هذه المعاني. وفي هذا الحديث: (هل رأيت أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى؟!) علمنا كيف يجود المرء بنفسه لله تعالى؛ ليحقق هذه التوبة التي قال فيها النبي – صلى الله عليه وسلم –

(لقد تابت توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة - أي: من خيار خلق الله تعالى - لوسعتهم).

فهذا الحديث لمن يريد التوبة، وفقنا الله جميعا إليها يا رب العالمين.

الحديث الثالث:

توبة كعب بن مالك وصاحبيه، أن أنخلع من مالي صدقة لله تعالى

وهو الحديث الطويل في توبة الصحابي كعب بن مالك رضي الله عنه، ونبدأ بنص الحديث توضيحًا للمعاني التي قد احتواها ، فهو يحتوي على معانٍ كثيرة متعلقة بالتوبة، ومتعلقة بالسير إلى الله تعالى، ومتعلقة بإصلاح المرء من سلوكه وأخلاقه وآدابه في سيره، وفي علاقته بالله تعالى.

هذه قصة كعب بن مالك لما تخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم هو وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع في غزوة تبوك، ولم يكن لهم عذر. فقد دعا النبي - صلى الله عليه وسلم - الناس إلى التجهز إلى السير إلى تبوك لغزو الروم، فسار القوم مع النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا كثيرًا، وتخلف هؤلاء الثلاثة لا لعذر، قعدوا ولم يذهبوا، فانظر ماذا حدث في هذه القصة.[21]

---

(٢١) أخرجه مسلم (٢٧٦٩) ولفظه: (عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ وَكَانَ قَائِدَ كَعْبٍ مِنْ بَنِيهِ حِينَ عَمِيَ قَالَ سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُ حِينَ

تَخَلَّفَ عَنْ قِصَّةِ تَبُوكَ قَالَ كَعْبٌ لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا كَانَ مِنْ خَبَرِي أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ وَاللَّهِ مَا اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ غَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا وَعَدُوًّا كَثِيرًا فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثِيرٌ وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ يُرِيدُ الدِّيوَانَ قَالَ كَعْبٌ فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيُ اللَّهِ وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتْ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا فَأَقُولُ فِي نَفْسِي أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا فَقُلْتُ أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا ثُمَّ غَدَوْتُ ثُمَّ رَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَطُفْتُ فِيهِمْ أَحْزَنَنِي أَنِّي لَا أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ النِّفَاقُ أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنْ الضُّعَفَاءِ وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ مَا فَعَلَ كَعْبٌ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ بِئْسَ مَا قُلْتَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا حَضَرَنِي هَمِّي وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا وَاسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي فَلَمَّا قِيلَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ

وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَادِمًا وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللهِ فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ تَعَالَ فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ لِي مَا خَلَّفَكَ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ فَقُلْتُ بَلَى إِنِّي وَاللهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا وَلَكِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللهِ لَا وَاللهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ وَاللهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ فَقُمْتُ وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي وَاللهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَنْ لَا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُتَخَلِّفُونَ قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكَ فَوَاللهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ قَالُوا نَعَمْ رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ فَقُلْتُ مَنْ هُمَا قَالُوا مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي وَنَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الْأَرْضُ فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ وَآتِي رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَأَقُولُ فِي نَفْسِي هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ فَقُلْتُ يَا أَبَا قَتَادَةَ

أَنْشُدُكَ بِاللهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ فَسَكَتَ فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَقَالَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ قَالَ فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ فَإِذَا فِيهِ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا وَهَذَا أَيْضًا مِنْ الْبَلَاءِ فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنْ الْخَمْسِينَ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْتِينِي فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ فَقُلْتُ أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ قَالَ لَا بَلْ اعْتَزِلْهَا وَلَا تَقْرَبْهَا وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ قَالَ كَعْبٌ فَجَاءَتْ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ قَالَ لَا وَلَكِنْ لَا يَقْرَبْكِ قَالَتْ إِنَّهُ وَاللهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ وَاللهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ فَقُلْتُ وَاللهِ لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كَلَامِنَا فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً وَأَنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ قَالَ فَخَرَرْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ وَآذَنَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَوْبَةِ اللهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنْ الْفَرَسِ فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ وَاللهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ يَقُولُونَ لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللهِ عَلَيْكَ قَالَ كَعْبٌ حَتَّى

عن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب رضي الله عنه حين عميَ – فكان عبد الله بن كعب يقود أباه عندما كبر في

دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي وَاللهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرَهُ وَلَا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ قَالَ كَعْبٌ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ قَالَ قُلْتُ أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ قَالَ لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِ اللهِ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ قُلْتُ فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ فَوَاللهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللهُ فِيمَا بَقِيتُ وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ إِلَى قَوْلِهِ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} فَوَاللهِ مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا فَإِنَّ اللهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى {سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَى قَوْلِهِ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} قَالَ كَعْبٌ وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ حَلَفُوا لَهُ فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللهُ فِيهِ فَبِذَلِكَ قَالَ اللهُ {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا} وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ مِمَّا خُلِّفْنَا عَنِ الْغَزْوِ إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ).

السن وذهب بصره - قال: سمعت كعب بن مالك رضي الله عنه يحدث بحديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، قال كعب:

لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت قد تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب النبي صلى الله عليه وسلم أحدًا تخلف عنه في بدر، لأنه خرج صلى الله عليه وسلم في بدر والمسلمون يريدون عير قريش فجمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

ولقد شهدت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليلة العقبة في منى، حيث تواثقنا على الإسلام، وما أُحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أكثر ذكرًا في الناس منها.

بعد هذه المقدمة بدأ في قصة الغزوة، لنرى في هذه الموعظة الطويلة الأحكام والعبر والمعاني التي ينبغي لكل أحد أن ينظر فيها النظر المعين له على تحقيق التوبة إلى الله تعالى، ونبدأ بتوضيح بعض معاني الألفاظ.

يقول: وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه صلى الله عليه وسلم في تلك الغزوة. والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها - يعني أَوْهم، فلو أنه صلى الله عليه وسلم يريد غزوة في جهة الشمال يوهم أنه يذهب جنوبا - حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم دون تورية. وكانت في حر شديد، يستقبل فيها سفرا بعيدا، ومفازا، فجلى للمسلمين أمرهم -لم يوهم ولم يور- ليتأهب المسلمون لغزوهم، فأخبرهم بوجهته الذي يريد صلى الله عليه وسلم.

يقول: والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد بذلك ديوان فيه أسمائهم- قال كعب: فقَلَّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي.

وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، فأنا إليها أصعر - أي أميل - فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئا، وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إن أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديا والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئا، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو - أي سبقني الغزاة - فهممت أن أرتحل فأدركهم فيا ليتني فعلت، ثم لم يقدر ذلك لي، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزنني ألا أرى لي أسوة إلا رجلا مغموصا عليه في النفاق أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء - أي يخرج يمشي في المدينة لا يجد إلا منافقا قد تخلف عن الرسول أو معذورا عذره الله، وهو ليس كذلك، فأحزنه ذلك جدا.

ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك وهو جالس في القوم بتبوك، قال: ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عطفيه.

فقال له معاذ بن جبل رضي الله عنه: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا. فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينا هو على ذلك رأى رجلاً مبيضا يزول به السراب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كُن أبا خيثمة، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري رضي الله عنه(٢٢).

قال كعب: فلما بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلا من تبوك حضرني بثي –يعني: الحزن الشديد –

(٢٢) أبو خيثمة الأنصاري السالمي اسمه عبد الله بن خيثمة، وقيل: مالك بن قيس، أحد بني سالم من الخزرج. شهد أحداً مع النبي صلى الله عليه وسلم وبقي إلى أيام يزيد بن معاوية. وهو الذي لمزه المنافقون لما تصدق بالصاع، فقد عمل يوما كاملا حتى أتى بصاعين، فذهب فتصدق بصاع وترك صاعا لأهله، فلمزه المنافقون، وقالوا: الله غني عن صاعك، مع أن صاعه أفضل من غيره بكثير، فنزل قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ... ﴾ [التوبة: ٧٩] (بتصرف من أسد الغابة في معرقة الصحابة)

فطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بمَ أخرج من سخطه غدا؟ وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادما زاح عني الباطل حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبدا، فأجمعت صِدقهُ – يعني: عزمت على قول الصدق لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأصبح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قادما، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون – أي المنافقون – يعتذرون فاستغفر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ووَكَل سرائرهم إلى الله، حتى جئته فلما سلمت عليه، تبسم تبسُّمَ المغضب، ثم قال: تعال، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟! **وانظر هنا إلى ما قال كعب رضي الله عنه فقوله هذا كان سبب توبة الله عليه** : قال: قلت يا رسول الله إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سَخَطه بعذر؛ لقد أُعطيتُ جدلا، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذبٍ ترضى به عني ليوشكن الله يسخطُك عليَّ، وإن

حدثتك حديث صدق تَجِدُ عليَّ فيه إني لأرجو فيه عقبى الله تعالى – أي: أن تكون العاقبة العفو .

والله يا رسول الله ما كان لي من عذر، ووالله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك.

بعد قوله هذا، ثار رجال من بني سلمة – من قبيلته – فقالوا له: والله ما علمناك أذنبت ذنبا قبل هذا، هل عجزت أن تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به المخلفون، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك، قال: فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأُكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، قال: قلت من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي.

قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا، فيهما أسوة.

قال: فمضيت حين ذكروهما لي.

ثم قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وقال: تغيروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثت على ذلك خمسين ليلة، أما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا، ثم أصلي قريبا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال ذلك عليَّ، يعني جفوة المسلمين، حتى تسورت جدار حائط لأبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلمت عليه فوالله ما رد عليَّ السلام !

فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت فناشدته فسكت، فعدت فناشدته فقال: الله ورسوله أعلم! ففاضت عيناي، وتوليت فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة

يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاءني، فدفع إلي كتابا من ملك غسان، وكنت كاتبا – يعني أعرف الكتابة– فقرأته، فإذا فيه:

أما بعد: فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالْحَقْ بنا نُواسك –يعني يواسونه–. فقلت حين قرأتها: وهذه أيضا من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرتها بها–يعني ألقاها في الفرن فحرقها. حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، واستلبث الوحي ، فإذا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها فلا تقربنَّها، وأرسل إلى صاحبيَ بمثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخٌ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكنه لا يقربك، قالت:

والله ما به حركة إلى شيء، ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا !

يقول كعب، فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، فقلت: لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدريني ماذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته فيها، وأنا رجلٌ شاب ؟

فلبثت بذلك عشر ليال، فكمُل لنا خمسون ليلة من حين نُهي عن كلامنا، ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، **فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت** سمعت صوت صارخ أَوْفَي على سلع -يعني صعد على جبل سلع-، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر ! فخررت ساجدا، وعرفت أنه قد جاء فرجٌ.

فآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بتوبة الله عز وجل علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا،

فذهب قِبَلَ صاحبيَّ مبشرون، وركض رجلٌ إليَّ فرسا، وسعى ساع من أسلم قبلي وأوفى الجبل،-يعني تسابق الناس لإخباره بالبشرى منهم من ركب الفرس ومنهم من قام على الجبل- فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيَّ فكسوتهما إياه ببشارته، ووالله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما.

وانطلقت أتأمم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلقاني الناس فوجا فوجا، يهنئوني بالتوبة، ويقولون: لتهنئك توبة الله عليك، حتى إذا دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس، فقام طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره، فكان كعبٌ لا ينساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور: **أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك**. فقلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ فقال: لا، بل من عند الله عز وجل، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم

إذا سُرَّ استنار وجهه كأن قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله: إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك، فقلت: إني أمسك سهمي الذي بخيبر، وقلت يا رسول الله: **إن الله إنما أنجاني بالصدق**، وإن من توبتي ألَّا أحدث إلا صدقا ما بقيت.

فوالله ما علمت أن أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم - مثل ما أبلاني، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيَ.

قال: فأنزل الله تعالى: ﴿ **لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ...** ﴾ [التوبة : ١١٧] وقوله: ﴿ **وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ...** ﴾ [التوبة : ١١٨] إلى قوله: ﴿

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

قال كعب: والله ما أنعم الله علي من نعمة قط - بعد إذ هداني الله للإسلام - أعظم في نفسي من صدقي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ألا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا على رسول الله، فإن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد.

قال تعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٥ - ٩٦].

قال كعب: كنا خُلِّفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى

قضى الله تعالى فيه فبذلك، قال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ...﴾ [التوبة : ١١٨]، وليس الذي ذكر الله مما خلفنا تخلفنا عن الغزو، **وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه**. هذا الحديث في الصحيحين في البخاري ومسلم.

وهذا الحديث من الأحاديث التي لم يقتصر فيها العمل على التوبة أو التنبيه عليها، أو ما يتعلق بها، وإنما فيه كثير من المعاني المتعلقة بالسير إلى الله تعالى، واستقامة هذا السير، وثبات هذا السير، وما يتعلق بصحة التوبة، والمعاهدة بعد التوبة على السير الصحيح إلى الله تعالى.

نظرات في الحديث:

شرح الحديث كله شيءٌ يطول، وسنقتصر إن شاء الله تعالى على بعض المعاني المتعلقة بالتوبة، وما يتعلق كذلك بالاستقامة وصحة السير إلى الله تعالى، الذي يحسن سير المرء إلى الله جل وعلا، ويأخذ بيده إليه، ويقويه على أن يثبت على طريق الله تعالى.

وكما هي عادتنا في النظر في الأحاديث لنعلم لماذا بدأ الحديث بهذا الكلام.

أولا : كيف نرى قصة كعب بن مالك في أنفسنا ؟

يقول عبد الله بن كعب : سمعت كعب بن مالك – رضي الله عنه – يحدث بحديثه حين تخلف عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في غزوة تبوك.[23]". فهو رضي الله عنه إما أنه قد حدث بذلك الحديث من نفسه، أو أنه قد رأى ما يستدعي إخبارهم بهذا الكلام، وذلك أنه قد رأى لهم تلك النصيحة التي يمكن أن يأخذوها من قضية كعب بن مالك، وهذه عادة الصحابة، أن يتكلموا بما يكون له نفع في حاله، فكأنه قال: هذا حال المسلمين الآن يحتاج إلى أن أقص عليهم قصة كعب بن مالك.

---

(٢٣) أخرجه مسلم (٢٧٦٩) ومن لفظه: (قَالَ كَعْبٌ: فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيُ اللهِ وَغَزَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتْ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا فَأَقُولُ فِي نَفْسِي أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا فَقُلْتُ أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا ثُمَّ غَدَوْتُ ثُمَّ رَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ).

فقال لهم: أحوالكم تتطلب **أن أحكي لكم قصة كعب بن مالك؛ حتى تفهموا منها هذه المعاني، وحتى تكون هذه المعاني سببا للخروج مما أنتم فيه**، أو لتصحيح الأعمال، أو لتصحيح السير إلى الله تعالى، أو في قضية التوبة إلى الله تعالى.

وهذا المعنى المهم وهو: أن حديثنا عن كعب بن مالك ينبغي أن نراه في أنفسنا، فنرى المعاني التي ينبغي التنبيه عليها، وحث الناس عليها، وتبيين ما فيها مما يَحْذره الناس، ومما يسارعوا إليه، ففيه التحذير، وفيه النصيحة، وغيرهما. وهذا أول ما ينبغي أن يُوجَّه إليه، فلهذا السبب وجهها إليهم.

فمن المحتمل أنه رضي الله عنه كان في نيته أن يوجه إليهم تحذيرًا مما هم فيه، أو تحذيرا مما ينبغي أن يكون من الأعمال التي ينبغي التحذير منها، أو نصيحة من النصائح التي ينصح بها المؤمنين في مثل هذه الأحوال التي تعرفُهم بالله تعالى، وتحملهم على التوبة، وتأخذ بأيديهم إلى السير الصحيح إلى الله تعالى.

والأمر الثاني المحتمل، أن هؤلاء المكرمون نظروا ووجدوا الفرصة ليعرف الناس، من ضمن ما يعرفون، قصص الصحابة مع

النبي - صلى الله عليه وسلم - ومن تلك القصص المهمة التي ينبغي أن يعرفونها قصة كعب بن مالك؛ لأنها تتعلق بالتوبة، وتتعلق بما فعل الله معه، وتتعلق بنزول القرآن في هذه القضية، وتتعلق بالجهاد مع الرسول صلى الله عليه وسلم .

وهذا يدل على الحرص الشديد منهم على معرفة أحوال النبي - صلى الله عليه وسلم - وأحوال الصحابة فيما يتعلق بمثل هذه القضايا، ليعلموا كيف كان حال النبي - صلى الله عليه وسلم - والصحابة في كل ما كان منهم من أعمال وأقوال وجهاد وبذل وتضحية وعبادة وسلوك ودعوة، كل ذلك كان مما يكون في محل اهتمامهم. وفي ذلك الأسوة لنا حتى نتعلم ونسأل ماذا كان يفعل الرسول، ونهتم أن نعرف أعماله وعباداته وأخلاقه وجهاده وسيره ودعوته، وغير ذلك من أحواله المشرفة صلى الله عليه وسلم.

فهؤلاء الصحابة الكرام ما كانوا يتركون شاردة ولا واردة عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا وحاولوا أن يكون لهم فيها نفع ونصيحة وتقرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإلى الله سبحانه وتعالى.

ثانيا: كيف كان حال من تخلف عن رسول الله مرة واحدة؟

بعد ذلك بدأ يحدثهم، ويقول: قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك.

فهذه هي المسألة الأولى، فكان من الممكن أن يقول لهم: سأحكي لكم قصة غزوة تبوك، فقد أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - الناس بالخروج، وبدءوا في الذهاب، ثم تخلفت عنهم. ولكنه رضي الله عنه لم يقل ذلك، وبدأ بأن أخبر بتخلفه عن الغزو. وفي ذلك عدة معانٍ:

الأول: أنه لم يتخلف عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قط، وهذا ما ينبغي أن يعرفه المؤمنون، **أنه لا ينبغي لهم أن يتخلفوا عن رسول الله**، ولا يقدم نفسه على نفس رسول الله، وألا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه - كما قال لهم الله تعالى - بل هو ونفسه وماله - كل ذلك - فداء لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما تخلف مرة واحدة فقط كان ما كان حتى أنه قصَّه عليهم بهذا الحزن.

فكأنه يقول: إن التخلف عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – شيء عظيم، ليس شيء مما يمر عليه الناس هكذا وهم يسمعونه، فهو لم يتخلف قط، فلم يكن من حال الصحابة التخلف عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في أوامره، كما قال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ...﴾ [الأحزاب : ٣٦].

الثاني: أنه يجوز للمؤمن أن يتكلم عن تخلفه، ويبين تقصيره وتفريطه، لما فيه من تحذير ، وما فيه من نصيحة، وما فيه من موعظة، ليتعلم منها الناس، وحتى يكون المرء متذكرا لهذه القضايا، ناصحا بها غيره مما ينبغي أن يحذره، أو يتعلمه، أو أن يُرشد إليه. وهذه مسألة من المسائل التي ينبغي كذلك فعلها، ولا حرج في ذلك.

ثم يقول: ولم يعاتب – النبي – صلى الله عليه وسلم – أحدا تخلف عنه في بدر؛ لأن الرسول ندبهم إلى العير، فخرجوا فكان أمر الله تعالى أن يقابلوا قريشا.

وفي كلامه مسألة مهمة نشير إليها، وهي قوله: شهدت مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مشهد العقبة، وما أُحب أن لي به بدرا، ولكن بدرا أذكر في الناس . ومعناه: أنه رضي الله عنه لا يحب أن يكون شهِد بدرا ولم يشهد العقبة؛ لما كان فيها من تلك المبايعة للنبي صلى الله عليه وسلم في مكة المكرمة في منى في شهر الحج على أن يمنع المسلمون النبي صلى الله عليه وسلم - مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأولادهم.

ومن أجل ذلك كان غاضبًا من نفسه؛ لأنه بايع النبي صلى الله عليه وسلم في العقبة على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، لذلك كان ينبغي ألا يتخلف عنه بعد ذلك رضي الله عنه.

ونحن نذكر ذلك ليقيس كلٌّ منا تخلفه عن النبي صلى الله عليه وسلم في أوامره وسنته وتعاليمه وبذله وتضحيته وسيره إلى الله، في سلوكه وعبادته ودعوته وبذله وجهاده وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وغير ذلك؛ فيرى كل أحد ما كان عليه الصحابة عندما تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان مع كعب رضي الله عنه في هذا المشهد هلال بن أمية ومرارة بن الربيع، والاثنان رجلان صالحان. يقول الراوي هنا: شهدا بدرا، وهما لم يشهدا بدرًا، فهذا وهم في الحديث؛ لأن أصحاب بدر قال النبي فيهم صلى الله عليه وسلم: " **لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم**"[24] وكان منهم

(٢٤) أخرجه أحمد (١/ ٧٩ ، رقم ٦٠٠) ، والبخاري (٣/ ١٠٩٥ ، رقم ٢٨٤٥) ، ومسلم (٤/ ١٩٤١ ، رقم ٢٤٩٤)، ولفظه: (عن عَلِيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: بَعَثَنِي رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ بْنَ الْأَسْوَدِ قَالَ انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً وَمَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الرَّوْضَةِ فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ فَقُلْنَا أَخْرِجِي الْكِتَابَ فَقَالَتْ مَا مَعِي مِنْ كِتَابٍ فَقُلْنَا لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا فِيهِ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أُنَاسٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا حَاطِبُ مَا هَذَا قَالَ يَا رَسُولَ اللهَّ لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنْ النَّسَبِ فِيهِمْ أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا وَلَا ارْتِدَادًا وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَقَالَ رَسُولُ اللهَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقَدْ صَدَقَكُمْ قَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللهَّ دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ قَالَ إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ).

حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه الذي قد أخبر قريش بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك قال فيه هذه القولة الجميلة.

أما هؤلاء فلم يتجسسا، وإنما تخلفا فقط، فإذن لم يكونا من أهل بدر، وإلا لقيل لهم من باب أولى ما قيل لحاطب، ولكن حدث معهما ما حدث مع كعب من المقاطعة، فدل ذلك على أنهما ليسا من أهل بدر.

والمتابع لهذه القصة يلاحظ أنها لم تكن متعلقة بنية التخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم ، **فإنه لم يكن أحد منهم يفكر في ذلك،** وإنما كما قال: غدا أقضي جهازي، إلى أن تفارط الناس أي سبقوه وساروا، أليس كذلك؟

ومرارة بن الربيع وهلال بن أميه من يوم أن خلفهما الرسول صلى الله عليه وسلم وأرجأ أمرهما إلى الله يفصل فيه - جلسا في بيتهما يبكيان !

يبكيان من يوم أن حدث لهما ما حدث إلى أن جاءت توبة الله تعالى لهما.

فلو لم نستخلص من هذه القضية منهما إلا هذا الحال لكفى، يقال: ماذا فعلا؟ يقال: جلسا يبكيان من يوم أن حدث ذلك إلى أن جاءت توبة الله لهما.

وهذه قضيتنا التي تكلمنا عليها، من منا جلس يبكي بمجرد تخلف واحد عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه العبرة التي ينبغي أن يأخذها المرء من قصتهما التي لم يتكلم عليها أحد بعد، فهذه عبرة مهمة، فينبغي أن يبكي المرء على حالة؛ أسفًا ألا يكون كذلك. بمعنى أن يبكي على نفسه ألا يصل في توبته أن يبكي من يوم أن فعل الذنب إلى أن يتوب الله تعالى عليه، هذه هي القصة.

أما أن يترك نفسه هكذا، لا يبكي على ذنب، ولا يندم على فعل، وإن تاب تاب بلسانه، ثم يعود مرة أخرى إلى ما كان عليه من ذنوب ومعاص - فأنَّى يُبشر بتوبة من الله تعالى.

وانظر إلى مدى التخلف الذي نتخلف فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وماذا فعلنا حزنا على ذلك! الآن نحن في تخلف في كل الاتجاهات: العبادات والسلوك والمعاملة والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأخلاق والمعاملات، ولا

حول ولا قوة إلا بالله. أما هؤلاء فتخلفوا مرة واحدة فجلسوا يبكون هذه المدة التي أخرهم الله سبحانه وتعالى فيها.

فهكذا ينبغي أن يكون حالنا مع تقصيرنا وتخلفنا، لا ما نحن عليه الآن، وهذا هو الفارق الذي ينبغي أن يتعلم المرء منه ما يكون سببًا في نزول التوبة التي قال فيها: " **أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك**" فهم يستحقون أن يقال لهم ذلك.

ثالثا: انتهاز فرصة الطاعة وعدم التردد

يقول كعب: طفقت أغدو - وهو من أفعال المقاربة من أخوات كان - لكي أتجهز مع النبي صلى الله عليه وسلم، فأرجع ولم أُجهِّز شيئا، ويقول في نفسه: أنا قادر على ذلك إذا أردت. فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو.

ثم يقول: **وهممت أن أرتحل فأدركهم، فيا ليتني فعلت**، وهذا هو حالنا! لقد هُيئ للمرء سبيل الطاعة، فتكاسل عنه، وتمادى في تسويف هذه الطاعة والقيام بها فحرمها، فكان عقاب الله له: أن يحرمه. يقول الله تعالى: ﴿ ... **ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ** ...﴾

[الأنفال : ٢٤]، فمن لم ينتهز فرصة الطاعة ويتمادى به الكسل حتى تفرط منه هذه الطاعة - سيحول الله بين قلبه وبين إرادته أن يأتيها، فيحرم هذه الطاعة عقابا له. فهذه هي القاعدة الجديدة في المسألة، أن يهيأ لك أمر الطاعة فتتكاسل عنه فيحال بين قلبك وبين إرادته، فتحرمها؛ عقابا لك على هذا التمادي والتكاسل عن هذه الطاعة، وهذه هي قصتنا في الاستقامة والتوبة إلى الله تعالى.

ونحن في هذه الأيام على مثل هذه الأحوال ، فالمرء تراه هيئ له أن يصلي صلاة السنة البعدية في الظهر مثلا، فيتهاون فيها ويقول: عندما أرجع ، عندما أنتهي من كذا، ويُسوف إلى أن يحرم منها. وغيره يهيأ له قيام الليل، ولكنه يسوف فيحرم منه، وهكذا !

فالقاعدة التي يجب أن تحفظها في السير إلى الله تعالى: **عندما يهيأ لك أمر طاعة يجب أن تنتهزها، وإلا حِيلَ بين قلبك وبين إرادتها، وحُرمتها عقابا على هذا التكاسل والتواني في عدم المسارعة إلى ما أمر الله:** ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ...﴾ [آل عمران : ١٣٣] فكان ملازمة المسارعة إلى هذه الأمور سببًا في الاستقامة.

فهذه القاعدة يجب أن نفهمها، وأن نفهم أن من يسير عليها ستستقيم أحواله، فيسارع المرء إلى عمل الطاعة، ولا يؤخرها؛ فإنه لا يضمن عمره، ولا يضمن أن يحال بينه وبين ذلك، فلا تؤخر الطاعة كائنا ما كانت، صغيرة أو كبيرة. فسيدنا كعب كان يقول: وأقول في نفسي أنا قادر على ذلك إذا أردت.

أما **المسألة الثانية** فهي قوله: يا ليتني فعلت.

فبعد أن يقع المحذور يندم المرء، ويقول: يا ليتني فعلت! فبدلاً من أن يكون حالك هكذا فقد عرفت الموعظة الآن من حديث سيدنا كعب، فيجب عليك أن تعلم كيف تقوم بها وتتحقق بها، فهذه موعظة لك تكون في أي فعل قد تأخرت عنه أن تقول: يا ليتني فعلت، فذلك معناه: إن شاء الله لن أفعل ذلك مرة ثانية، وسأبادر إلى الخير دائما، سأستعين بالله، وأفعل، وأسارع إلى الفعل حتى لا يقع هذا التخلف وذلك الحرمان.

يقول الحديث: فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزنني ألا أرى لي أسوة! ليست لي قدوة ولا أسوة في الذين تخلفوا عن رسول الله - صلى الله عليه

وسلم - إلا رجلا مغموصا عليه في النفاق، أو رجلا ممن عذر الله تعالى من الضعفاء.

وجاء أيضا في قصة غزوة تبوك: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [التوبة : ٧٥ - ٧٧] فهذه سبب من أسباب التخلف عما عاهد الله تعالى عليه أن يفعله، فمصيبة التخلف في هذه الآية واضحة.

رابعا : السؤال عمن يغيب من إخوانك مع الشفقة عليه وحسن الظن به

يقول كعب رضي الله عنه: لم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك وهو جالس في القوم، قال: ما فعل كعب بن مالك؟

وملخص هذه المسألة: السؤال عمن يغيب، فلا بد من الشفقة والعمل الصالح والإحسان، فيتفقد المرء من يغيب من إخوانه: ماذا فعل فلان؟ لماذا لم يأت؟ فالمهم في هذه المسألة هو السؤال، وهو يدل على الشفقة والرحمة والعطف، وكون المؤمنين قلبا واحدا، أو يدا واحدة، أو جسدا واحدا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر، وفي نفس الوقت حتى يكون سببًا لأن يرفع المرء عن إخوانه ما يمكن أن يكون قد نزل بهم، أو أن يكون في عونهم.

ولما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ما فعل كعب بن مالك؟ قال أحدهم: شغله برداه ونظره في عطفيه، أي شغله إعجابه بنفسه وأنه كذا وكذا، فرد معاذ بن جبل - رضي الله عنه - وقال: بئس ما قلت، والله ما علمنا عليه إلا خيرا. فيجب أن تكون هذه عادة المسلمين.

النبي صلى الله عليه وسلم لم يعنف أحدهما، فالأول قال ذلك غضبا لله ورسوله: كيف يتخلف؟! فلم يعنفه صلى الله عليه وسلم وكذلك لم يعنف معاذ بن جبل لما قال: بئس ما قلت.

والقول الأول لا ينبغي لأمثالنا قوله؛ لأننا في الهم سواء، فلا يصح أن ينتقص أحدنا غيره، فله أن يقول كلمة خير مثلما قال معاذ، فهذا هو الأَولى.

فنيتهم جميعا كانت صالحة، فلو كانت كلمته هذه غير صالحة بغير نية حسنة لأجابه النبي - صلى الله عليه وسلم - على الفور، وصحح له وأرشده، ولأنكر عليه، فهو لم يكن ليترك أحدا لأن يقول كلاما منكرا في حضرته المشرفة صلى الله عليه وسلم.

أما نحن فلنا الأمر الثاني، أن نقول مثلما قال معاذ: ما علمنا عليه إلا خيرًا، على أساس الإصلاح، وتقريب المسافة، ومحاولة الرجوع والتوبة وفتح الباب.

خامسا : الصدق سبب التعرض لرحمة الله حتى ولو تسبب في غضب وقتي

يقول: فظل النبي - صلى الله عليه وسلم - راجعًا، فحضرني بثِّي، وهو من قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ...﴾ [يوسف : ٨٦] وهو شدة الحزن، فلما علم أن الرسول - صلى

الله عليه وسلم - عائدا أصابته شدة الحزن على هذا التخلف الذي وقع منه، وهذا ليس حال المرء بالطبع !

يقول: طفقت أتذكر الكذب، وأقول: بما أخرج من سخطه غدا، وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي. فلما قيل لي: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أظل قادمًا زاح عني الباطل، حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبدا - أي لن أنجو بشيء من الباطل أبدا - فأجمعت صدقه - صلى الله عليه وسلم - فعزم على الصدق معه صلى الله عليه وسلم، وذلك دليل على أن الله تعالى أراد به الخير.

ونتعلم من ذلك كيف يريد الله الخير بالمرء، فنتعلم أن نكون في مثل هذا المقام من الصدق حتى نتعرض لرحمة الله وعنايته وإرادة الخير والحفظ منه سبحانه وتعالى، فيرفع عنا الباطل والكذب والسوء، والأمور المهلكة.

وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادما، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، وهذا معناه أنه يأتي متوضئا - صلى الله عليه وسلم - ومعنى ذلك

استحباب الوضوء في السفر، حتى إذا وصل المسجد يصلي ركعتين.

فلما فعل ذلك جاء المخلفون من الأعراب يعتذرون إليه ويحلفون له، كما قال الله تعالى: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [التوبة : ٩٥ - ٩٦] فلذلك قال كعب ؓ بعد ذلك: الحمد لله أني لم أكذب على النبي صلى الله عليه وسلم وإلا قيل لي مثل ما قيل لهم وهو شر ما قيل لأحد في كتاب الله تعالى.

يقول: دخلت عليه، فلما سلمت تبسَّم تبسُّم المغضب، ثم قال: تعال، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه. وفيه معنى أنه لا يجوز رد السلام؛ عتابا على من قام بشيء يستحق عليه التأديب أو العتاب.

يقول: ما خلَّفَك؟! ألم تكن قد ابتعت ظهرك - أي اشتريت - قلت: يا رسول الله لو جلست عند أي أحد من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلا، ولكنني **والله لقد علمت لأن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله يسخطك علي، وإن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه - أي تغضب مني فيه - إني لأرجو فيه عقبى الله عز وجل، والله ما كان لي من عذر.**

وأهمية هذا الكلام أن يتعلم المرء أنه لا ينبغي لأحد أن يعتذر لنفسه، أو يعتذر عنها أبدا، لا يعتذر عن نفسه بأية اعتذارات، يقال له: لا، لا تعتذر هذه الاعتذارات، إنما هذه الاعتذارات إنما هي الأسباب التي جاءت من الله تعالى لك؛ لتحرمك ما وصلت إليه، فهي أسباب الحرمان، وأنت تعتذر بها، فأنت نهاية المطاف قد حرمت، والله عز وجل يفعل هذه الأسباب التي تبين لك أسباب الحرمان، وينبغي عليك ألا تعتذر بها، وإنما هي من الله تعالى، وهو يعلمها ويقدرها؛ لكي تقع في هذا الحرمان، فلا تعتذر بها.

يقول: ما كنت أقوى مني ولا أيسر مني قط، ولا جمعت راحلتين قبل ذلك قط، وكذا وكذا.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أما هذا فقد صدق الله، فقم حتى يقضي الله فيك.

قال: اجتمع علي بنو سلمة - قوم كعب بن مالك - حتى يرجع فيكذب نفسه عند النبي - صلى الله عليه وسلم - قالوا: كان يكفيك أن يستغفر لك النبي - صلى الله عليه وسلم - كما استغفر لهم، حتى هممت أن أرجع فأكذب نفسي، ويعتذر بأسباب كالتي نتحج بها نحن عندما نعتذر لأنفسنا بأسباب باطلة على معاني الحرمان.

سادسا : جواز مقاطعة الصادقين من المقصرين للمُربي

القضية التالية هي قضية المقاطعة، فإنه لما جاء المخلفون إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - قبل منهم، واستغفر لهم، ووكل سريرتهم إلى الله تعالى، ولكن الصادقين لهم معاملة أخرى، وإن كانت تبدوا قاسية ولكن كان فيها الفرج ! لذلك يقول ابن القيم:

وللإمام وللمعلم وللمربي وللمطاع له أن يعاتب على من قصر من هؤلاء الصادقين.

أما المنافقون فلا ينفع فيهم دواء المقاطعة، لأنه في النهاية لا يؤدي معهم إلى إيمان أو غيره، وإنما كان هذا الدواء الذي قام به النبي - صلى الله عليه وسلم - لأولئك الذين صدقوا؛ فكعب رضي الله عنه يقول: لم أكن أيسر قط، ولا أجلد قط من هذه المرة، ولا جمع راحلتين في غير هذه المرة أبدا، وهذا هو الصدق الذي ينبغي أن يواجه به المرء نفسه، فيتعلم المرء من هذا الحال ألا يجادل عن نفسه، ولا يعتذر لها، ويقول الصدق، ولا يعتذر بأعذار واهية عن تقصيره، فالاعتذارات التي نعتذرها عن أنفسنا غير صحيحة عند الله تعالى.

فقد قال كعب: المسلمون مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ، أي: لم يكن الديون قد أنشئ بعد، وإنما أنشئ في عهد عمر رضي الله عنه، فقَلَّ رجل أراد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى، ما لم ينزل فيه وحي.

فكل ما يقوله المرء من معاذير معلوم عند الله، وهو - مع تلك الاعتذارات - محروم، فلماذا يعتذر! فالله يرى ويُقَّدر عليك كل هذا، ولكنه يحرم المرء لأنه يستحق الحرمان، بما كان منه فحُرم من أجله، فعليه أن يبحث لماذا حُرم؟ ولا يتعلل بالأعذار، فالله تعالى يقول: ﴿ ... **وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ** ...﴾ [النساء : ٧٩] وليس من الأسباب التي تعتذر بها !

يقول: ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيرت لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف.

وهذه الوحشة يجدها المرء في نفسه عندما يقترف ذنبا من الذنوب يجد هذه الوحشة، في الأرض والناس، وهذه وحشة مهمة، يجب أن يتعلمها المرء في حياته، أن يكون حزينا على هذا الذنب.

وذكرنا مسألة هلال بن أمية، الذي كان شيخًا كبيرًا، والنبي صلى الله عليه وسلم - بعد أربعين ليلة قال: أما الآخران فجلسا في بيتهما يبكيان، حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بأن يفارقوا

زوجاتهن فجاءت زوجة هلال بن أمية إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالت له: يا رسول الله إن هلال شيخ ضائع، فهل تأذن لي في أن أخدمه، قال: نعم، ولكن لا يقربنك، فقالت: والله يا رسول الله إنه ما به من حركة إلى شيء من يوم أن حدث له ذلك إلى يومنا هذا، ليس له حركة إلى شيء وما زال يبكي من يومه إلى اليوم.

يقول: وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حركت شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال ذلك علي من جفوة المسلمين.

ونبين ذلك حتى لا يغضب الناس عندما قد يُخالفون، أو يجدون جفوة في المعاملة، وأشياء من هذا القبيل، والأصل في ذلك هو التنبيه على يظهر من تقصير، وذلك يستوجب لفت النظر والنصح، ولا ينبغي أن يكون سببا للغضب للنفس، فهذا ينبني

على رؤية النفس، وأنه لا ينبغي أن يُقترب منها إن كانت مقصرة أو طائعة، ولا أن يبكي على ما كانت فيه نفسه من تقصير ومخالفة، لا هو يبكي، ولا يريد أن ينصحه أحد، وهذه مما ينبغي أن يتعلمه المرء.

ونلاحظ تلك المقاطعة أيضا عندما جاء كتاب ملك غسان في قوله: طفق الناس يشيرون إلي، ولم يتكلموا؛ تطبيقا لكلام النبي صلى الله عليه وسلم حتى لا يكون هذا نوع من الكلام مع كعب بن مالك، فهم يشيرون فقط؛ حتى لا يستأنس بأن يقال: هذا كعب بن مالك، ووصولا في التمسك بكلام النبي صلى الله عليه وسلم وأوامره إلى أقصى درجة ممكنة.

انظر إلى التورع وإلى ترك الشبهات، فضلاً عن عدم الوقوع في النواهي أو عدم الالتزام بالأوامر.

وهذا يبين مدى التساهل الذي نحن فيه من تلقي أوامر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فالبعض قد يستأهل، ويقول: ماذا يحدث إذا كلمته؟ ماذا يحدث إذا دللت السائل عليه بالكلام؟ ماذا يحدث إذا رددت السلام على كعب؟ ومسائل كثيرة من هذا المعنى

الذي تبينه أحوالنا في عدم الوصول إلى هذا الحال الحسن الذي يبين مدى الالتزام بالدقة الشديدة في الأوامر والنواهي، والتورع عن المخالفة حتى ولو كانت هذه المخالفة في عين الإنسان صغيرة، ولا تعد مخالفة.

فلو قلبنا الكلام الآن، فلو جاء هذا النبطي، وقال: أين كعب بن مالك؟ ثم قال له أحد المسلمين: هو هناك - لمرت علينا نحن ولم نلحظها، ولا وصل إلينا هذا المعنى الذي نتكلم فيه الآن، فلما لم تقل فهمنا هذا المعنى من التورع، ومن التنفيذ الدقيق لأوامر النبي صلى الله عليه وسلم ومن ترك أي مدخل يكون فيه وقوع في المخالفة لذلك الأمر، حتى لو كان قليلاً ضعيفًا.

سابعا: عندما تتغير قلوب الخلق عليك فانظر في تقصيرك مع الله

يقول: حتى إذا طال ذلك علي من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة - رضي الله عنه - وهو ابن عمي وأحب الناس إليَّ، فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدك بالله تعالى هل تعلمني أحب الله

ورسوله - صلى الله عليه وسلم - فسكت ولم يجبني فعدت فناشدته فسكت، فعدت فناشدته فقال: الله ورسوله أعلم.

تسور الحائط: أي علا على البستان، وهذه يجوزه العلماء مع من يُعلم أنه لا يغضبه ذلك ولا يحزنه، أن تعلو جداره وتدخل حديقته، هذا مع من يحبه ويعرفه ويسامحه في ذلك.

يقول: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، جلس يبكي، وتوليت حتى تسورت الجدار ورجعت.

فهذه المسألة يتعلمها المرء ، وهي كيف تنكرت لهم الأرض، فعندما يُغيِّر الله تعالى عليه قلوب الناس فيما أتى من ذنوب وتقصير في حق الله تعالى ألا يكون سببا لمقاطعتهم، صرت تعلم هذه القضية البحتة بينك وبين الله تعالى، **أنه ما يحدث تغير من الناس عليك، أو يتنكر لك الناس، أو يحدث لك كذا وكذا من المكروهات - أن تعود على نفسك باللوم، وان تعلم أن هذا مما قدره الله تعالى عليك بسبب ما أنت فيه من تقصير وذنوب، فتعود على نفسك، وتبكي عليها، لا أن تعترض على تقديرات تعالى، فنفسك أولى بهذا اللوم، وهذا العتاب، وهذا العقاب، وهذه المحاسبة، كل ذلك نفسك أولى به.**

وعليك أن تحمد الله تعالى على أن فعل ذلك، فهو جل وعلا ينبهك، ويذكرك إلى هذه المعاني، لا أن تتغير أنت على الله وعلى الناس، وترى نفسك المقصرة أحق بأن تعاتب عنها، وأن تغضب لها، وأن تحزن لها، فعليك أن لا تغضب لها. من لا يتعلم ذلك لن يصل إلى الله تعالى.

بعضهم يقول: تغير الناس مع المتدينين - هذه الأيام - من هذا الباب؟ نعم، من هذا الباب، الله تعالى غير القلوب وكرهت المتدينين لأنهم مقصرون في أنفسهم، وفي دعوة الناس، ولا شك في ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فأنت ينبغي أن ترجع على نفسك باللوم؛ لأن الله تعالى هو الذي قدر الأسباب التي أوصلتك إلى هذا الحرمان، ولا تعتذر عن هذه النفس، بل تسلم لله تعالى بصدق وإخلاص له بأنك أنت المقصر، وأنك ندمت على ما فعلت، وأنك لا تعود إلى ذنب أبدا، وإن ما يقع بك إنما أنت تستحقه، بل تستحق أكثر من ذلك، فهذا هو الطريق الذي يسلك بك إلى الله تعالى، وليس غير ذلك.

فيجب عليك أن تنكسر، وأن تفكر فيما أنت فيه ليكون سببًا في التوبة والاستغفار، وأن تقول لله تعالى: أنا فعلت وفعلت، وأنا أستحق وأستحق، فيقول لك الله تعالى: وأنا قد عفوت، وأنا قد سامحت، وأنا قد تجاوزت.

ولكن شرط ذلك، ألا يجادل المرء أبدًا عن نفسه، وأن ما وقع له يذكره بالله تعالى والتوبة إليه، يذكره بالتقصير والتفريط، لا يحمله على مقاطعة الناس والغضب منهم، لا بل يجب أن يغضب من نفسه، فنفسه تستحق أكثر من ذلك، ولكن رأف الله تعالى به.

ثامنا: امتحان فتنة الدنيا يكون قبل التوبة

يقول: بينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام قدم بالطعام يبيعه بالمدينة - أهل الشام يسمونهم الأنباط - يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إلي، حتى جاءني فدفع إلي كتابا من ملك غسان.

جاءه الكتاب، وهذه هي المسألة التي يتعلمها أهل الإيمان في قضية السير إلى الله تعالى، وتزكية النفس، والالتزام بأمر الشرع، وهي مسألة أن لا أحد يأتيه حال من هذه الأحوال ولا يأتيه

امتحان. فلا بد لمن يقول: (يا رب) أن يأتيه امتحان تلو امتحان؛ ليُعلم هل يثبت على الأمر أم لا.

يقول: جاءني كتاب، وكنت كاتبا - أي يعرف القراءة والكتابة - فقرأته، فإذا فيه: أما بعد، قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان، فالحق بنا نواسك - أي نعطف عليك - فقلت حين قرأتها: وهذه أيضا من البلاء.

الله عز وجل أرسل له امتحان، فكل هذه الأمور تقدير من الله تعالى، فهو لتوه راجعًا من عند أبي قتادة، ولم يرد عليه حين أنشده بالله: هل تعلم أني أحب الله ورسوله، وقال في النهاية: الله أعلم، لا أدري.

فبعد أن فاضت عيناه عند أبي قتادة جاءه الامتحان من الله تعالى، ووجد من يقول له: الحق بنا نواسك، وهذه الحالة هي التي تبين الثبات والصبر من الله تعالى، تبين محبة الله ورسوله، تبين صدق الإنسان من عدمه، أن يأتيك في هذه الحالة السيئة التي أنت فيها يأتي هذا الامتحان، وهذه كثيرا ما تأتي في أحوال أحسن من هذه الحالة التي نحن فيها، ومع ذلك لا يثبت المرء.

فليتعلم المرء هذه المسألة، وهي مسألة مهمة جدا في سيره إلى الله، أنه كلما سار إلى الله تعالى لا بد وأن تأتيه تلك الامتحانات التي تبين ثباته وصحة إيمانه من ضعفه ونفاقه، ومن يصبر تأتيه العاقبة الحسنة من الله تعالى، وهي توبة الله عليهم، كما ذكر الله تعالى.

وهذا الامتحان قد يحدث معنا جميعا عندما نريد الاقتراب من الله تعالى، فالشاب الملتحي حديثا قد يجد ممانعة من أبيه وأمه، وممانعة في عمله، وهكذا من الأمثلة التي نراها بيننا، وتكون فيها الامتحانات من الله لتبين لنا صحة اليقين فيما عند الله، والثقة فيما عند الله، والتوكل على الله.

فهو سبحانه وتعالى **إنما يمتحنك على قدرك**، فلا تخش شيئًا، فهو لا يريد أن يهلك سبحانه وتعالى، ولا أن يضيع عليك رزقك، ولا أن يوقعك في مصيبة، كلا، هي امتحانات، كما امتحن الله تعالى إبراهيم عليه السلام: ﴿ **فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ...** ﴾ [الصافات : ١٥] فلما قال: ﴿ ... **قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ**

قَالَ يَتَأَبَتِ ٱفْعَلْ ...﴾ [الصافات : ١٠٢] فقد قال له الشيطان لأم إسماعيل وقال لها: أين يذهب إبراهيم بابنك؟ قال: يريده في شيء، قال لها: لا، إنه يريد أن يذبحه، ويقول: إن الله قد أمره بذلك، قالت: يقول إن الله أمره بذلك؟ قال: نعم، قالت: إن كان الله أمره بذلك فليفعل، ثم ذهب وقال نفس الكلام لإسماعيل، فالمنطق يقول أن هذه المرأة كانت ستعترض طريق إبراهيم لما أخبرها الشيطان بذبحه.

فمسألتنا أن الشخص عندما يقول: يا رب، يأتيه الامتحان، امتحان في اليقين، في التوكل، في الثقة، في الإيمان، في الصبر، في الثبات، كل هذه المعاني.

فالمتردد يقول: هل أنا إذا سمعت كلام الله وثبت في هذا الموضوع سيكافئني الله، ولا يصدق أن الله تعالى يمكن أن يحفظه.

وقد ذكر الله قصة بدر بهذه المعاني، يقول: ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝ ﴾ [الأنفال : ٥] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا

دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ...﴾ [الأنفال : ٢٤]، فهم يستجيبون لما يحييهم لا إلى ما يميتهم، فالاستجابة لله وللرسول فيها حياتهم لا موتهم كما يظنون.

فما فيه نقص الرزق، أو ما يظن أن فيه موته، أو تعذيبه أو سجنه - فكل هذا من تسويل الشيطان وتخويفه؛ حتى يعيق المرء عن أن يثبت لله، أو أن يصبر مع الله، أو أن يصبر بالله، أو أن يستيقن في الله تعالى.

فالله ورسوله لا يدعيان إلى ما يميت بل إلى ما يحيي، فالاستجابة لهما سوق إلى الحياة، وسوق إلى الغنى لا إلى الفقر، وسوق إلى رحمة الله تعالى، وإن وقع أمر الله تعالى فقد وقع وأنت على اليقين والرضا والثبات والإيمان والصبر، فهذه مسألة يجب أن يحفظها كل أحد.

وهذه الامتحانات تأتي للصغير والكبير: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ ﴾ [العنكبوت : ٢] لا بد من اختبار ولو في المسائل البسيطة، كالسنن مثلا قبل وبعد

الصلاة، فأنت إذا تلكأت وتكاسلت تحرم من ثوابها؛ عقابا من الله تعالى. وتقول: ويا ليتني فعلت! يقول أحدهم: أريد أن أصلي الظهر، وبعد ذلك يجلس ليتكلم مع أحدهم، ثم يؤجل الصلاة، حتى يحرم من ثواب الجماعة.

والمسألة التي نود أن نبسطها في هذه القضية أيضا هي أن هؤلاء الكفرة يتجسسون على المسلمين، ويعرفون ما هم عليه من ناحية، حتى أنهم عرفوا أن كعب بن مالك - رضي الله عنه - قد جفاه صاحبه كما يقول ملك غسان: إن صاحبك قد جفاك. فهم يحاولوا أن يستغلوا ذلك الأمر ليخرجوه عن دينه، وكأنها قضيتهم في إخراج المؤمنين عن دينهم، والعمل على ذلك ليل نهار، ومن ثم ينبغي للمؤمن كما رأينا في قصة كعب بن مالك أن يأخذ حذره في ذلك، فما أن جاءه هذا الكتاب من ملك غسان حتى أخذه وألقاه في التنور، أحرقه، فيجب أن يسارع المرء إلى أي أمر يمكن أن يعيقه حتى لا يطول به الأمل فتميل نفسه إليه، أو يزل ولا يثبت، أو أن يزيد عليه الشيطان من وسوسته، وأن يسول له الأمر، وأن يزينه له

حتى يخرجه إلى هذا الحال السيئ الذي يمكن أن يكون سببا كما ذكرنا في قصة المنافقين أن الله ذكرهم بشرٍ قول قيل لأحد.

تاسعا : قطع عوائق التوبة فورا

يقول: فقلت حين قرأتها: وهذه أيضا من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرتها - أي أحرقها في الفرن - وهذه مسألة مهمة أيضا، ونستفيد منها أنه أول أن يأتي البلاء فلا بد وأن نلقي بأسبابه ونقطعها مباشرة.

يقول العلماء: وإن أي سبب من الأسباب التي قد ابتلي بها المرء لتكون عائقا له عند الله أن يقطع هذا السبب فورًا.

أي شيء سيعوقك تخلص منه فورا، ولا تؤجل كما يفعل من يدخنون، ونفس الكلام في معاملة المؤمنين مع الله تعالى، لا يسوف، فما أن يعرض للمرء ما يكون سببا لتأخيره عن الله تعالى أن يقطعه فورا. لا يلتفت إليه، ولا ينتظر عليه، فمن الممكن أن يؤثر في قلبه، فلو أن كعب بن مالك انتظر قليلا قد يجد من يقول له: اذهب للملك حتى يهدأ النبي - صلى الله عليه وسلم - ولكنه قاطع الشيء من أوله.

فأي سبب كائنا ما كان يعرض لك عليك أن تقطعه إذا تخيلت هذا المعنى أو لم تتخيله، فبمجرد أن يعرض لك سبب من أسباب البلاء التي تبين صدقك، وتبين مدى صحة المعاملة مع الله تعالى فعليك أن تقطعه فورا، وبذلك تستطيع أن تسير إلى الله تعالى، وتعين نفسك على السير إلى الله تعالى.

عاشرا: ينبغي ترك الشهوات عند اقتراب أيام التوبة والرحمة

حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي - أي تأخر - إذا رسول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يأتيني، ويقول: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ فقال: لا، اعتزلها فلا تقربنها، وأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك. فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.

وجاءت امرأة هلال بن أمية، فقالت: يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ فقال: لا، ولكن لا يقربنك، فقالت: إنه والله ما به من حركة إلى شيء،

ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. يجب أن ترق قلوبنا شيئا ما من هذه المعاني من معاني التوبة، يجب أن نبكي!

فالرسول صلى الله عليه وسلم لما قربت الخمسين يوما - قبلها بعشرة أيام - قال له: اعتزل امرأتك، فكلما قربت أوقات التوبة أو أوقات الرحمة فإنه ينبغي للمرء أن يشد مئزره، كما كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يفعل في العشر الأواخر من رمضان، وفي أيام الحج حتى يفيض من عرفات مغفورا له. يقول فيه - صلى الله عليه وسلم - : **(كان إذا دخل العشر جد واجتهد وشد المئزر، واعتزل النساء، وأحيا ليله)**.[٢٥]

فعندما قربت المغفرة مُنع من قرب امرأته؛ ليكون أفرغ لعبادة الله، وانتظار مغفرة الله تعالى وتوبته. وهذه هي المسألة المهمة، وهي كيف يفرغ المرء نفسه عندما يريد أن يتوب إلى الله تعالى، بأن يترك الدنيا وزينتها وشهواتها، ويتفرغ إلى الله تعالى،

---

(٢٥) أخرجه مسلم (١١٧٤)، ولفظه (عَنْ عَائِشَةَ - رضى الله عنها - قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللهِ - صلى الله عليه وسلم- إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ أَحْيَا اللَّيْلَ وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ وَجَدَّ وَشَدَّ الْمِئْزَرَ).

عسى أن تكون تلك الأيام التي يتفرغ فيها إلى الله تنتهي بهذه التوبة من الله تعالى.

فمما ينبغي ويلزم للتوبة وقربها، وقرب نزول الرحمة والمغفرة - أن يترك المرء شهوات الدنيا التي على رأسها النساء، وهذه مهمة من مهمات كيف يترك المرء شهواته ويمتنع عنها؛ لتكون سببا في أن يقبل الله تعالى توبته مما توفر فيه، فهو يبدي لله تعالى أنه خرج من كل الشهوات، جلس يبكي ولا يشتهي شيئًا من ولد أو زوجة، أو أي شيء، فكل همه أن يتوب الله تعالى عليه. فإن تاب عليه كان كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - لكعب: أبشر بخير يوم مر عليك منذ أن ولدتك أمك.

فالمدة التي تعبوا فيها هل حصل لهم فيها شيء بسببها أم كأنها - الخمسون يومًا - لم تمر عليهم؟ فكأنهم كأهل الجنة في الجنة. ففي الحديث: (**يؤتى بأشد أهل الدنيا في الدنيا بؤسا، ثم يغمس غمسة**

في الجنة، ويقال له: هل رأيت بؤسا قط؟ فيقول: لا)[٢٦] فهذه هي الدنيا!

فنحن محتاجون لهذه الأمور على الدوام؛ حتى يبشرنا ربنا سبحانه وتعالى بالتوبة، أم أننا تائبون، وليس عندنا ذنوب ولا معاصي ولا نحتاج لشيء؟!

وبعض العلماء يقول: عندما يكون الإنسان عاصيا ومفرطًا، وسيئ الحال - ينبغي لزوجته أن تقول له: لا بد أن تنتبه لآخرتك، وهذا معناه أن المرأة المؤمنة لا تمكن زوجها العاصي منها في أيام العصيان والتقصير، تساعده في هذا المعنى لا على معنى النشوز.

أهل سيدنا كعب يتخيلون أن ما ينصحونه به هو الخير له، فقد نصحوه بأن يرجع ويكذب نفسه عند النبي صلى الله عليه وسلم وكذلك نصحوه أن يطلب من النبي - صلى الله عليه وسلم

---

(٢٦) أخرجه مسلم (٢٨٠٧)، ولفظه (عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِى النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ فَيَقُولُ لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِى الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ فَيَقُولُ لاَ وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِى بُؤْسٌ قَطُّ وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ ».).

- فقال: لا، أنا رجل شاب، وما يدريني ماذا يقول الرسول لي، لن أطلب ذلك منه صلى الله عليه وسلم.

يقول: لبثت بذلك عشر ليال، فكملت لنا خمسون ليلة، فيجب على كل منا أن يبحث عن خمسين ليلة يعيشها لله في حياته العريضة التي يعيشها؛ لعل الله تعالى يفتح عليه.

حادي عشر: ثم تاب عليهم ليتوبوا (عناية الله بالتائبين)

يقول: لبثت بذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهي عن كلامنا، ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى، ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على سلع، ويقول بأعلى صوته: **يا كعب بن مالك أبشر فخررت ساجدا.**

أي: شكرا لله تعالى، وهو سجود الشكر في هذه الأحوال التي تأتي بالنعمة أو تدفع فيها النقمة يستحب أن يسجد لله شاكرًا.

يقول: وعرفت أنه قد جاء فرج - ولكنه لا يدري أمن الله أم من عند رسول الله - فآذن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

الناس بتوبة الله عز وجل علينا حين صلى صلاة الفجر - آذن أي أعلم - أعلمهم بتوبة الله تعالى على هؤلاء الثلاثة.

والقارئ لآيات التوبة يرى ذلك المعنى المهم، يقول: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة : ١١٨] أن الله تعالى هو الذي تاب عليه ليتوب، ما كان يستطيع أن يتوب إلا أن يتوب الله عليه أولا، فلما سبقت له توبة الله تعالى استطاع حينئذ بفضله أن يتوب إلى الله.

فإن تحقق هذان المعنيان لا شك أنها التوبة المقبولة، لذلك قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ أي: هو الذي يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، وهو المعنى الذي قاله العلماء: أن توبة العبد بين توبتين من الله تعالى، فهو الذي وفقه للتوبة وللأخذ بأسبابها وهيأ له السير في طريقها ثم هو يقبلها منه إن كان صادقا وجاء ربه خاضعا نادما باكيا متذللا.

فذهب الناس يبشروننا. وهذا يرينا محبة الصحابة للخير، ومحبتهم لإخوانهم، وبذلهم لهم في ذلك، فذهب الناس أول ما حدث ذلك ليبشروه بتوبة الله عليه.

يقول: فذهب قِبل صاحبي مبشرون، وركض إلي رجل فرسا، ولكن سعى ساع ووقف على الجبل، ونادى بصوته، فكان الصوت أسرع من الفرس.

ثاني عشر: محبة إدخال السرور على المؤمنين وخاصة من نزل به كرب

يقول: قام أناس يبشرونني، هرولوا لبشروه، وأوفى رجل على جبل سلع وقال: أبشر يا كعب بن مالك، فكان الصوت أسرع من الفرس، فهذا معنى جميل، وهو **معنى محبة إدخال السرور على المؤمنين**، فكلهم يهرول لكي يدخلوا عليه السرور، لا كما يفعل البعض في مضايقة إخوانه، وعدم إدخال السرور عليهم!

وهذه فيها رحمة النبي صلى الله عليه وسلم أولا، وفيها مدى الشفقة والمحبة والخير والمسرة التي يدخلها المؤمنون على إخوانهم.

وفي هذا استحباب البشرى، واستحباب التهنئة، والقيام إلى الرجل الذي جاءه السرور أو الفرح، أن يدخل عليه وأن يسلم عليه أو يعانقه. ففيها استحباب البشرى، واستحباب السرور، واستحباب المحبة.

فسيدنا كعب قال في آخر الحديث: لما نزلت توبة الله تعالى عليهم

وفيها قوله: وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا سر استنار وجهه كأنه قطعة قمر - صلى الله عليه وسلم - قال: ولعل فرحه هو - صلى الله عليه وسلم - بتوبة كعب بن مالك أشد فرحا من توبة كعب نفسه، فهذه رحمته صلى الله عليه وسلم.

يقول: فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي، وكسوتها إياه ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت أتأمم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتلقاني الناس فوجًا بعد فوج.

يقول: حتى انتهيت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جالس حوله الناس، فقام

إلي طلحة بن عبيد يهرول حتى صافحني، فلما سلمت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: **أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك**، ولا شك أنه كذلك، سوف نشرح هذا المعنى بالتفصيل في حديث الفرح الإلهي بتوبة العبد.

فقلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله تعالى؟ قال: بل من عند الله عز وجل.[٢٧] وهذا السؤال له معنى واحد لأن ما عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إنما هو من عند الله ﴿ **مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ** ...﴾ [النساء : ٨٠] وإنما السؤال معناه: هل هي من عندك عن الله تعالى لا قرآن فيها أو هي من عند الله؟ أي هل هي من عند الله بقرآن أم من عند الله بكلام النبي - صلى الله عليه وسلم - الموحى إليه به بغير قرآن؟ هذا معناها.

---

(٢٧) أخرجه مسلم (٢٧٦٩) ومن لفظه: (قَالَ كَعْبٌ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ وَيَقُولُ « أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ ». قَالَ فَقُلْتُ أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَقَالَ « لاَ بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ». وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ).

يقول: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر.

فهو يسر - لا شك - لما يحدث لأصحابه - صلى الله عليه وسلم - من الخير، خاصة من خير الآخرة الذي يكون سبب نجاتهم، الذي هو الأصل في بعثته صلى الله عليه وسلم أنه قد بعث لنجاتهم في الآخرة قبل الدنيا.

ثالث عشر: شكر نعمة التوبة، أن انخلع من مالي صدقة لله

والمسألة المهمة في التوبة التي نود الإشارة إليها: يقول كعب بن مالك رضي الله عنه: يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة لله ورسوله.

وهذه هي المسألة التي نادرا ما يتوب المرء، ونادرا ما يحقق التوبة بهذه المعاني، فهذه هي المسألة المهمة في مسائل التوبة في هذا الحديث التي نضيفها إلى الأحاديث السابقة:

الأولى: جاء تائبا مقبلا بقلبه على الله تعالى.

الثانية: جادت بنفسها لله تعالى.

والثالثة: أنه تاب فانخلع من ماله صدقة لله تعالى كما يقول كعب بن مالك هنا: إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة لله ورسوله.

أما حالتنا فلا توبة فيها أصلا، فضلاً عن أن يكون فيها انخلاع من مال - بغض النظر عن قيمة هذا المال - لله ولرسوله، يبين حقيقة هذه التوبة، وكونها توبة نصوحا لله تعالى من ناحية، ومن ناحية أخرى شكرا لله تعالى على التوفيق لهذه التوبة؛ لأنه ما تاب إلا بتوبة الله تعالى عليه.

الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال له: أمسك عليك بعض مالك؛ فهو خير لك، أي أن يمسك شيئا من ماله له هو؛ حتى لا يحتاج، فلا يخرج من ماله كله صدقة لله تعالى؛ لئلا يحتاج، ولا يمد يديه حينئذ، فقال له: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك.[٢٨]

---

(٢٨) أخرجه مسلم (٢٧٦٩) ومن لفظه: (قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِى أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِى صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ -صلى الله عليه وسلم-. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « أَمْسِكْ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ ». قَالَ فَقُلْتُ فَإِنِّى أُمْسِكُ سَهْمِىَ الَّذِى

وهذه المسألة تختلف باختلاف الأشخاص، فبعض الأشخاص الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يقبل منهم هذه الصدقات، أو يقبل منهم جزءًا صغيرًا، أو يقبل منهم الثلث، أو يقول له: أمسك عليك بعض مالك، أو يأخذ نصف ماله، أو يتبرع بماله كله لله تعالى.

فقد قبل مال الصديق كله، قال: **(ماذا تركت لأهلك؟ قال: تركت لهم الله ورسوله)** ، أما مع سيدنا عمر قال: **(ماذا تركت لأهلك؟ قال: مثله)**.[٢٩]

بِخَيْبَرَ - قَالَ - وَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهَّ إِنَّ اللهَّ إِنَّمَا أَنْجَانِي بِالصِّدْقِ وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لاَ أُحَدِّثَ إِلاَّ صِدْقًا مَا بَقِيتُ - قَالَ - فَوَاللهَّ مَا عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلاَهُ اللهُّ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهَّ -صلى الله عليه وسلم- إِلَى يَوْمِي هَذَا أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلاَنِي اللهُّ بِهِ وَاللهَّ مَا تَعَمَّدْتُ كَذْبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهَّ -صلى الله عليه وسلم- إِلَى يَوْمِي هَذَا وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِيَ اللهُّ فِيمَا بَقِيَ).

(٢٩) أخرجه الترمذي (٥/ ٦١٤ ، رقم ٣٦٧٥) وقال : حسن صحيح ، والحاكم (١ / ٥٧٤ ، رقم ١٥١٠) وصححه، ولفظه: (عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، قَالَ : أَمَرَنَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم بِالصَّدَقَةِ فَوَافَقَ ذَلِكَ مَالٌ عِنْدِي ، فَقُلْتُ : الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي ، فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ ؟ قُلْتُ : مِثْلَهُ ، وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ : مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ ؟ قَالَ : اللهَّ وَرَسُولَهُ ، فَقُلْتُ : لاَ أُسَابِقُكَ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا).

أما مع سيدنا كعب بن مالك فقد قال له: (**أمسك عليك بعض مالك**) ، ومع سيدنا سعد بن خولة قال: (**الثلث والثلث كثير**)[٣٠].

فهذه المعاني تختلف باختلاف إيمان الأشخاص وصديقيتهم، ويقينهم في الله تعالى، وتوكلهم على الله تعالى، وثقتهم في رزق الله تعالى وما عند الله تعالى.

وهذه المسألة نحتاجها اليوم قبل التوبة وبعد التوبة، نحتاج إلى هذه الأعمال من أعمال الإيمان العظيمة التي تكون سببا لأن يوفق الله المرء للتوبة، وتكون سببا في نفس الوقت إذا تاب أن يقبل الله تعالى توبته، وأن يثبته على هذه التوبة والهداية، كما قال تعالى: ﴿ **إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ** ...﴾ [الفرقان : ٧٠] ﴿ **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ**

---

(٣٠) أخرجه البخاري (٣/ ١٠٠٧ ، رقم ٢٥٩٢) ، ومسلم (٣/ ١٢٥٣ ، رقم ١٦٢٩) ، ولفظه: (عَنْ سَعْدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُودُنِي وَأَنَا مَرِيضٌ بِمَكَّةَ فَقُلْتُ لِي مَالٌ أُوصِي بِمَالِي كُلِّهِ قَالَ لَا قُلْتُ فَالشَّطْرِ قَالَ لَا قُلْتُ فَالثُّلُثِ قَالَ الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ أَنْ تَدَعَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ فِي أَيْدِيهِمْ وَمَهْمَا أَنْفَقْتَ فَهُوَ لَكَ صَدَقَةٌ حَتَّى اللُّقْمَةَ تَرْفَعُهَا فِي فِي امْرَأَتِكَ وَلَعَلَّ اللهَ يَرْفَعُكَ يَنْتَفِعُ بِكَ نَاسٌ وَيُضَرُّ بِكَ آخَرُونَ).

﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه : ٨٢] أي ثم استقام على هذه الهداية، وعلى هذه التوبة.

مثل هذه الصدقة تكون سببا لثبات هذه الهداية بعد التوبة، وتكون كذلك سببا للتوفيق للتوبة، فهو مهموم بالتوبة يتصدق، ويصلي، ويدعو، ويتضرع، ويبكي، وفجأة يفتح عليه باب التوبة، إن فتح باب التوبة يتوب، إن فتح باب التوبة فتح باب القبول لهذه التوبة، حينئذ يبشر بخير يوم مر عليه منذ ولدته أمه كما يقول النبي صلى الله عليه وسلم.

يقول: فقلت: إني أمسك سهمي الذي بخيبر، وقلت: يا رسول الله إن الله تعالى إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقا ما بقيت، فوالله ما علمت أحدا من المسلمين أبلاه الله تعالى في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أحسن مما أبلاني.[٣١]

---

(٣١) أخرجه مسلم (٢٧٦٩) ومن لفظه: (قَالَ كَعْبٌ: يَا رَسُولَ اللهَّ إِنَّ اللهَّ إِنَّمَا أَنْجَانِى بِالصِّدْقِ وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِى أَنْ لاَ أُحَدِّثَ إِلاَّ صِدْقًا مَا بَقِيتُ - قَالَ - فَوَاللهَّ مَا عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلاَهُ اللهَّ فِى صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهَّ -صلى الله عليه وسلم- إِلَى يَوْمِى

أبلاه: أي أكرمه سبحانه وتعالى به، وجزاه حسن الجزاء، وليس من الابتلاء، فهو لم يعرف أحدا أكرمه الله تعالى بالصدق كما أكرمه الله جل وعلا.

يقول: والله ما تعمدت كذبة قط منذ قلت ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى يومي هذا، وإني أرجو أن يحفظني الله تعالى فيما بقي.

فلذلك من لا يشكر في أعماله الصالحة لا يزداد منها، بل يمكن أن يحرم إياها، فأنت عملت عملا صالحا وفقك الله تعالى إليه، فشكر هذا العمل أن تشكر الله تعالى عليه، إما بمزيد العمل من نفس العمل، أو بعمل آخر، تشكر الله تعالى عليه؛ لأن هذه هي القضية التي يستقيم بها سير المرء إلى الله تعالى؛ لأن الشكر له معنيان مهمان:

هَذَا أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلاَنِى اللهُ بِهِ وَاللهِ مَا تَعَمَّدْتُ كَذْبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- إِلَى يَوْمِى هَذَا وَإِنِّى لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِىَ اللهُ فِيمَا بَقِىَ).

الأول: تثبيت النعمة التي أنت عليها، وهذا ما تحتاجه؛ حتى لا تتوب ثم ترجع بعد مدة قصيرة إلى نفس الذنب، فالشكر إنما يثبت النعمة.

الثاني: أن الشكر يزيد منها، فلو وفقك الله لشيء ما تشكر الله تعالى بزيادة هذا الشيء والاستكثار منه.

فإذا وفقك الله لشيء ما الصوم مثلا فعليك أن تشكر الله على هذا الصيام بقيام الليل مثلا، فإذا وفقك للقيام فعليه أن يتصدق، وهكذا كلما وفقك الله لشيء ما تشكر لتثبت على هذا الحال الحسن الذي وفقت إليه من الله تعالى، ولتزداد من هذا السير إلى الله تعالى، تزداد من هذه الأعمال الصالحة.



الحديث الرابع:

فرح الله تعالى بتوبة عبده، لله أشد فرحا بتوبة عبده

ونختم بهذا الحديث هذه السلسلة من أحاديث التوبة، عن أبي حمزة أنس بن مالك - رضي الله عنه - خادم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : **(لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة)**[٣٢].

وفي رواية لمسلم: **(لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاه فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، قم**

(٣٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٥) ومن لفظه: (عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- أَنَّهُ قَالَ « قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِى وَاللَّهِ لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلاَةِ وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَىَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَىَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَىَّ يَمْشِى أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ »).

قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح).[٣٣]

وقوله: (لله) جواب لقسم مقدر تقديره، والله لله أشد فرحا بتوبة عبده، هذا معناها.

بتوبة عبده من أحدكم في فلاة معه راحلته - أي دابته - عليها طعامه وشرابه، وهو وحده في الصحراء يمشي، فاضطجع ثم استيقظ لم يجد راحلته وعليها طعامه وشرابه ! قد يُجن المرء من هذا الموقف؛ لأنه سيموت، أين ذهبت؟ أخذ يجري يمينا وشمالا يبحث عنها حتى أيس منها، فرجع فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت.

فنام فاستيقظ فإذا هي واقفة على رأسه، فمن فرحه قال: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح !

---

(٣٣) أخرجه مسلم (٢٧٤٧) ومن لفظه: (عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلاَةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِى ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِى وَأَنَا رَبُّكَ.. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ »).

فهذا تمثيل - ولله المثل الأعلى - بفرح الله تعالى بتوبة عبده؛ حتى تعرف قيمة التوبة، التي ينبغي أن تحافظ عليها، وأن تكون من شغلك يوميا، فهي لازمة على الفور كما ذكرنا، وفي كل حال؛ لأن المرء لا يخلو مما ينبغي أو يجب أن يتوب منه إلى الله تعالى كما بينا ذلك في أحاديث التوبة.

والسؤال: ما علاقة هذا الفرح بحديث كعب بن مالك؟

الجملة في حديث كعب كانت تقول: **أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك. لماذا يبشر؟ لأن الله تعالى فرح به**. فهذا هو الرابط بين الحديثين.

فيوم توبة العبد هو يوم فرح الله تعالى برجوع عبده الآبق العاصي إليه، فهو خير يوم لا شك في ذلك؛ فهو يوم الفرح الإلهي.

وننظر في ما أورده الإمام ابن القيم في المدارج [٣٤] ففيه الكفاية:

(٣٤) انظر: مدارج السالكين، لطائف أسرار التوبة، طبعة دار الكتاب العربي، الجزء الأول، ص: ٢٢٦ -٢٣١.

يقول: ومنها: أي السر الأعظم الذي لا تقتحمه العبارة، ولا تجسر عليه الإشارة، ولا ينادي عليه منادي الإيمان على رءوس الأشهاد، بل شهدته قلوب خواص العباد، فازدادت به معرفة لربها سبحانه وتعالى، ومحبة له، وطمأنينة به، وشوقا إليه، ولهجا بذكره، وشهودا لبره ولطفه وكرمه وإحسانه، ومطالعة لسر العبودية، وإشرافا على حقيقة الإلهية، وهو ما ثبت في الصحيحين ... الحديث الذي ذكرنا.

والقصد أن هذا الفرح – فرح الله تعالى – له شأن لا ينبغي للعبد إهماله، والإعراض عنه، ولا يطلع عليه إلا من له معرفة خاصة بالله تعالى وأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وما يليق بعز جلاله.

يقول: وقد كان الأولى بنا طي الكلام فيه إلى ما هو اللائق بأفهام بني الزمان وعلومهم، ونهاية أقدامهم من المعرفة، وضعف عقولهم عن احتماله – هذا في زمانه فما بالكم بزماننا؟!!- غير أنا نعلم أن الله عز وجل سيسوق هذه البضاعة إلى تجارها، ومن هو

عارف بقدرها، وإن وقعت في الطريق بيد من ليس عارفا بها فرب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

فاعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله وشرفه، وخلقه لنفسه، وخلق كل شيء له، وخصه من معرفته ومحبته وقربه وإكرامه بما لم يعطه غيره، وسخر له ما في سماواته وأرضه وما بينهما حتى ملائكته - الذين هم أهل قربه - استخدمهم له، وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته، وظعنه وإقامته، وأنزل إليه وعليه كتبه، وأرسله وأرسل إليه، وخاطبه وكلمه منه إليه، واتخذ منهم الخليل والكليم والأولياء والخواص والأحبار، وجعلهم معدن أسراره، ومحل حكمته، وموضع حبه، وخلق لهم الجنة والنار، فالخلق والأمر والثواب والعقاب مداره على النوع الإنساني؛ فإنه خلاصة الخلق.

فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات، وقد خلق أباه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأظهر فضله على الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات، وطرد

إبليس عن قربه وأبعده عن بابه؛ إذ لم يسجد للإنسان مع الساجدين، واتخذه عدوا له.

فالمؤمن من نوع الإنسان خير البرية على الإطلاق -كما ذكر الله تعالى: ﴿ ... أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ ﴾ [البينة : ٧] وخيرة الله من العالمين.

يقول: فإنه خَلقه ليتم نعمته عليه، وليتواتر إحسانه إليه، وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته، ولم يخطر على باله، ولم يشعر به؛ ليسأله من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة، العاجلة والآجلة، التي لا تنال إلا بمحبته، ولا تنال محبته إلا بطاعته، وإيثاره على ما سواه، فاتخذه محبوبا له، وأعد له أفضل ما يعده محب غني قادر جواد لمحبوبه إذا قدم عليه، وعهد إليه عهدا تقدم إليه فيه بأوامره ونواهيه، وأعلمه في عهده ما يقربه إليه، ويزيده محبة له، وكرامة عليه، وما يبعده منه، ويسخطه عليه، ويسقطه من عينه.

وللمحبوب - ذلك الإنسان المؤمن - عدو هو أبغض خلقه إليه، قد جاهره بالعداوة، وأمر عباده أن يكون دينهم وطاعتهم

وعبادتهم له دون وليهم ومعبودهم الحق - يقصد الشيطان - واستقطع من عباده عبادا اتخذهم حزبا له، ظاهروه ووالوه على ربهم، وكانوا أعداء له مع هذا العدو، يدعون إلى سخطه، ويطعنون في ربوبيته وإلهيته ووحدانيته، ويكذبونه، ويفتنون أولياءه، ويؤذونهم بأنواع الأذى، ويجهدون على إعدامهم من الوجود، وإقامة الدولة لهم، ومحو كل ما يحبه الله ويرضاه وتبديله بكل ما يسخطه ويكرهه، فعرفه - المولى سبحانه وتعالى - بهذا العدو، وطرائقهم وأعمالهم ومالهم، وحذره موالاتهم، والدخول في زمرتهم، والكون معهم.

وأخبره - أي أخبر الإنسان - في عهده أنه أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وأنه سبقت رحمته غضبه، وسبق حلمه عقوبته، وسبق عفوه مؤاخذته، وأنه قد أفاض على خلقه النعمة، وكتب على نفسه الرحمة، وأنه يحب الإحسان والجود والعطاء والبر، وأن الفضل كله بيده، وأن الخير كله منه، وأن الجود كله له، **وأحب ما إليه أن يجود على عباده، وأن يوسعهم فضلا، وأن يغمرهم بإحسانه وجوده، وأن يتم عليهم نعمته، وأن يضاعف لديهم**

منته، وأن يتعرف إليهم بأوصافه وأسمائه، وأن يتحبب إليهم بنعمه وآلائه.

فهو الجواد لذاته، وجود كل جَواد خلقه الله ويخلقه أبدا أقل من ذرة بالقياس إلى جوده، فليس الجواد على الإطلاق إلا هو سبحانه وتعالى، وجود كل جواد من جوده، ومحبته للجود والإعطاء والإحسان والبر والإنعام والإفضال فوق ما يخطر ببال الخلق، أو يدور في أوهامهم، وفرحه بعطائه وجوده وإفضاله أشد من فرح الآخذ بما يُعطاه ويأخذه أحوج ما هو إليه أعظم ما كان قدرا، **فإذا اجتمع شدة الحاجة وعظم قدر العطية والنفع بها فما الظن بفرح المعطي؟ ففرح المعطي سبحانه وتعالى بعطائه أشد وأعظم من فرح هذا بما يأخذه، ولله المثل الأعلى**؛ إذ هذا شأن الجواد من الخلق، فإنه يحصل له من الفرح والسرور والابتهاج واللذة بعطائه وجوده على الناس فوق ما يحصل للأخذ - هذا مع كمال حاجته - فما الظن بمن تقدس وتنزه سبحانه وتعالى؟! ولو أن أهل سماواته وأرضه وأول خلقه وآخرهم وإنسهم وجنهم ورطبهم ويابسهم

قاموا في صعيد واحد فسألوه فأعطى كل واحد ما سأله - ما نقص ذلك من ملكه شيئا.

فجوده العالي من لوازم ذاته، والعفو أحب إليه من الانتقام، والرحمة أحب إليه من العقوبة، والفضل أحب إليه من العدل، والعطاء أحب إليه من المنع.

ولكن ماذا يحدث إذا عصى الإنسان ربه ؟

فإذا تعرض عبده ومحبوبه الذي خلقه لنفسه، وأعد له أنواع كرامته، وفضله على غيره، وجعله محل معرفته، وأنزل إليه كتبه، وأرسل إليه رسوله، واعتنى بأمره، ولم يهمله، ولم يتركه سدى، فتعرض لغضبه، وارتكب مساخطه، وما يكرهه، وأبق منه - هرب من ربه - ووالى عدوه، وظاهره عليه، وتحيز إليه، وقطع طريق نعمه وإحسانه إليه - أنت الذي قطعت طريق النعم والإحسان الواصل إليك من الله تعالى بخروجك وهروبك منه، وموالاة عدوه، وطاعته بتلك المعاصي - التي هي أحب شيء إلى الله تعالى، وفتح طريق العقوبة والغضب والانتقام - استدعى من الجواد الكريم خلاف ما هو موصوف به من الجود والإحسان والبر،

وتعرض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه، وأن يصير غضبه وسخطه في موضع رضاه، وأن يصير انتقامه وعقوبته في موضع كرمه وبره وعطائه، فاستدعى بمعصيته من أفعاله ما سواه أحب إليه منه، وخلاف ما هو من لوازم ذاته من الجود والإحسان.

والمعنى: أن المرء إذا عصى ربه استدعى من صفات الله تعالى صفاتٍ غيرها أحب إليه، فالرحمة والعفو والكرم والجود والإحسان أحب إليه، والمرء بالمعصية قطع طريق ذلك كله، واستدعى خلاف ما يحب الله تعالى، من محبته للرحمة التي سبقت غضبه، والعفو الذي سبق عقوبته، والعطاء الذي سبق منعه.

يقول: فبينما هو حبيبه المقرب المخصوص بالكرامة إذا انقلب عبدا آبقا شاردا من ربه، رادا لكرامته، مائلا إلى عدوه، مع شدة حاجته إليه سبحانه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين، فبينما ذلك الحبيب - هذا المؤمن - مع العدو في طاعته وخدمته ناسيًا لسيده، غافلاً عنه، منهمكًا في موافقة عدوه - قد استدعى من سيده خلاف ما هو أهله -استدعى خلاف الحلم والعفو والرحمة والفضل والإحسان والجود والبر والكرم - إذ عرضت له فكرة

فتذكر بر سيده، وعطفه، وجوده، وكرمه، ومسامحته، وإحسانه، وعلم أنه لا بد له منه - سيرجع إليه سيرجع إليه - وأن مصيره إليه، وأن عرضه عليه، وأنه إذا لم يقدم عليه بنفسه قدم به عليه على أسوأ الأحوال، ففر إلى سيده من بلد عدوه، وجد في الهرب حتى وصل إلى بابه سبحانه وتعالى، **فوضع خده على عتبة بابه، وتوسد ثرى أعتابه، متذللا متضرعا خاشعا باكيا آسفا، يتملق سيده ويسترحمه ويستعطفه، ويعتذر إليه.**

قد ألقى بيده إليه، واستسلم له، وألقى إليه زمامه، فعلم سيده ما في قلبه من الرجوع والندم والعزم على ألا يرجع، والإقلاع عما هو فيه، وترك عدوه، فعاد مكان الغضب عليه رضا عنه، ومكان الشدة عليه رحمة به، وأبدله بالعقوبة عفوا، وبالمنع عطاء، وبالمؤاخذة حلما، فاستدعى بالتوبة والرجوع من سيده ما هو أهله من صفاته وأسمائه.

فاستدعى بهذه التوبة الحلم والعفو والرحمة والإحسان والجود، أي استدعى من الله ما يحبه من صفاته سبحانه وتعالى، أي

بذلك طلب من الله تعالى ما هو أهله سبحانه وتعالى من الصفات الحسنة مكان الغضب والانتقام والعذاب والمنع والطرد والإبعاد.

استدعى بالتوبة والرجوع ما هو يحبه سبحانه وتعالى، فالله يحب الحلم والعفو، فإذا تبت فقد جئت لتستدعي حلمه وعفوه وشفقته ورأفته ورحمته وجوده وإحسانه وبره وعطفه وكرمه، استدعيت ذلك من الله، وليس أحب إلى الله تعالى من ذلك.

فتوبتك تستدعي من الله تعالى ما هو أهل له، وما هو أحب له من تلك الصفات الحسنة.

يقول: فكيف يكون فرح سيده به؟

فعندما رجع العبد الآبق إلى سيده، قال: أنت أهل الرحمة، والعطف والجود، والعفو والمغفرة، أهل الثناء الحسن الجميل، وذلك ما يحبه ربه، فعاد إليه، ففرح ربه لأنه عاد ربه عليه بما يحبه الرب سبحانه وتعالى.

يقول: وقد عاد إليه حبيبه ووليه طوعا واختيارا، وراجع ما يحبه سيده منه برضاه، وفتح طريق البر والإحسان والجود التي هي أحب إلى سيده من طريق الغضب والانتقام والعقوبة.

يقول: وهذا موضع الحكاية المشهورة عن بعض العارفين:

أنه حصل له شرود وإباق من سيده، فرأى في بعض السكك بابا قد فتح، وخرج منه صبي يستغيث ويبكي، وأمه خلفه تطرده حتى خرج، فأغلقت الباب في وجهه ودخلت، فذهب الصبي غير بعيد، ثم وقف مفكرا فلم يجد له مأوى غير البيت الذي خرج منه، ولا من يؤويه غير والدته، فرجع مكسور القلب حزينا، فوجد الباب مرتجا -أي مغلقا - فتوسده، ووضع خده على عتبة الباب ونام، فخرجت أمه فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه، والتزمته تقبله وتبكي، وتقول: يا ولدي أين تذهب عني؟! ومن يؤيك سواي؟! ألم أقل لك: لا تخالفني ولا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة بك، والشفقة عليك، وإرادتي الخير لك.

وتأمل قول الأم: **لا تحملني بمعصيتك لي على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة بك، والشفقة عليك، وإرادة الخير لك.**

وتأمل هذا الحال في قول النبي - صلى الله عليه وسلم - :

(لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها).[٣٥]

يقول: فإذا أغضبه العبد بمعصيته فقد استدعى منه صرف تلك الرحمة عنه، فإذا تاب إليه فقد استدعى منه سبحانه وتعالى ما هو أهله وأولى به جل وعلا.

فهذه نبذة يسيرة تطلعك على سر فرح الله تعالى بتوبة عبده أعظم من فرح هذا الواجد لراحلته في الأرض المهلكة بعد اليأس منها.

ووراء هذا ما تجفو عنه العبارة، وتدق عن إدراكه الأذهان.

وما سبق هو الجزء الأول في الفرح الإلهي، **أما الجزء الثاني في الفرح فهو الفرح الإلهي المتعلق بالإلهية**، وهو أن الله تعالى يحب عبده متعبدا له، متذللا له، خاشعا له، يطيعه ولا يعصيه، إذا أمره

---

(٣٥) رواه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤)، ولفظه: (عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْيٌ فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنْ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ قُلْنَا لَا وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ فَقَالَ للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا).

يسارع إلى أمره، وإذا نهاه يجتنب نهيه، الله يحب ذلك، ويحب لعبده أن يكون كذلك، فيستدعي من ربه الفرح، فإن خرج عما يحبه من الإلهية والعبادة فكأنه خرج - كما خرج في الأولى - عما يحبه من العطاء والرحمة والإحسان، فإذا رجع إلى ما يحبه من العبادة فرح الله تعالى به.

إذا رجع إلى العبادة، وإذا رجع إلى طريقه واستقام عليه، وإذا رجع إلى الوقوف على بابه متذللا خاضعا خاشعا، **يأتمر بأوامره، وينتهي بنواهيه، ويأخذ بقلبه إليه خاشعا، وبلسانه إليه ذاكرا، وببدنه إليه متعبدا، قائما بأوامره، ملتزما بها، منتهيا عن نواهيه، قائما بحقوقه، واقفا عند حدوده، مسارعا إلى الخيرات** - رجع إلى ما يحبه الله تعالى مما خلق له الإنسان.

حينئذ يفرح به عندما يعود واقفا له، تائبا له يقول: الله أكبر، **رجع إلى العبادة، وإلى الذكر، وإلى الطاعة، وإلى ما يحبه ربه من إقباله عليه، ومن تعبده له، ومن تألهه لله تعالى.**

يقول: فإن الله سبحانه إنما خلق لعبادته الجامعة لمحبته والخضوع له وطاعته، وهذا هو الحق الذي خلقت له السماوات والأرض، وهو غاية الخلق والأمر.

والمعنى: أنه إذا خرج العبد عما خلق له من الطاعة والعبودية وفرط وقصر - كما نفعل نحن - خرج عن الغاية التي خلق لأجلها، وهي الطاعة والعبودية لله، فخرج عن أحب الأشياء لله تعالى؛

فإذ كانت أحب صفاته إليه- كما ذكرنا - الجود والإحسان والرحمة وغيرها من صفات الجمال، فكذلك في العبودية أحب الأشياء إليه طاعة العباد له، وتذللهم له، وإقبالهم عليه، وخشوعهم له، وتضرعهم له، ودعائهم له، ووقوفهم بين يديه، ووقوفهم ببابه لا يتزحزحون، بكل هذه الأعمال، فإذا خرج عن العبودية خرج عما خلق له ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

يقول: فإذا خرج العبد عما خلق له من الطاعة والعبودية فقد خرج عن أحب الأشياء إليه، وعن الغاية التي لأجلها خلقت

الخليقة وصار كأنه خلق عبثا لغير شيء؛ إذ لم تخرج أرضه البذر الذي وضع فيها بل قلبته شوكا ودغلا، فإذا راجع المرء ما خلق له وأوجد لأجله فقد رجع إلى الغاية التي هي أحب الأشياء إلى خالقه وفاطره، ورجع إلى مقتضى الحكمة التي خلق اله تعالى الخلق لأجلها، وخرج عن معنى العبث والسدى والباطل، حينئذ تشتد محبة الرب له؛ فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، فأوجبت له هذه المحبة فرح الله تعالى به.

وانظر لهذا المعنى: **الله تعالى يفرح بك، وانظر أين مكانك ساعتها** !! ونحن في غفلة عن هذا الحال، حال أن يفرح الله تعالى بنا، لو علم المرء شيئا من ذلك قليلا ما فكر أبدا أن يعصي ربه، أو أن يتزحزح عن بابه، أو أن يتحرك يمنة أو يسرة عن أن يقوم له ليله ونهاره؛ إذ هو قد فرح به سبحانه وتعالى.

فانظر إلى هذا الفرح الذي قاله النبي بفرح هذا الذي قال: (**اللهم أنت عبدي وأنا ربك**) أخطأ من شدة الفرح، ليس هناك فرح في الدنيا أكثر من ذلك؛ لأنه قد نجا من الموت.

يقول: ولو كان في الفرح المشهود في هذا العالم نوع أعظم من هذا الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم لذكره، ولكن لا فرحة أعظم من فرحة هذا الواجد الفاقد لمادة حياته وبلاغه في سفره بعد إياسه من أسباب الحياة بفقده، وهذا كشدة محبته سبحانه وتعالى التائب المحب إذا اشتدت محبته للشيء وغاب عنه ثم وجده وصار طوع يده، فلا فرحة أعظم من فرحته به.

فما الظن بمحبوب لك تحبه حبا شديدا، أسره عدوك، وحال بينك وبينه، وأنت تعلم أن العدو سيسومه سوء العذاب، ويعرضه لأنواع الهلاك، وأنت أولى به من عدوه، وهو غرسك وتربيتك، ثم إنه انفلت عن عدوه ووافاك على غير ميعاد، فلم يفجأك إلا وهو على بابك يتملقك ويسترضيك ويستعينك، ويمرغ خديه على تراب أعتابك، فكيف يكون فرحك به؟!!

هذا، ولست الذي أوجدته وخلقته ولا أسبغت عليه نعمك، والله عز وجل هو الذي أوجد عبده، وخلقه وكونه، وأسبغ عليه نعمه، وهو يحب أن يتمها عليه، فيصير مظهرا لنعم الله تعالى، قابلا لها، شاكرا لها، محبا لوليها، مطيعا له، عابدا له، معاديا لعدوه،

مبغضا له، عاصيا له، والله تعالى يحب من عبده معاداة عدوه، ومعصية عدوه، ومخالفة عدوه، كما يحب أن يوالى الله سبحانه وتعالى مولاه ويطيعه ويعبده، فتنضاف محبته لعبادته وطاعته والإنابة إليه إلى محبته لعداوة عدوه ومعصيته ومخالفته، فتشتد محبة الرب سبحانه وتعالى له، ويحصل حينئذ فرح الله تعالى به، وفي صفة النبي في بعض الكتب المتقدمة: عبدي الذي سُرت به نفسي.

ومن شروط التوبة كما تعلمون: الندم والإقلاع والعزم، والشيخ هنا يزيد شرطا وهو الاعتذار إلى الله تعالى.

يقول: والذي ظهر في من كلام صاحب المنازل - منازل السائرين الذي يشرحه ابن القيم في مدارج السالكين- أنه **أراد بالاعتذار إظهار الضعف والمسكنة، وأن يظهر غلبة العدو، وقوة سلطان النفس، وأنه لم يكن مني ما كان عن استهانة بحقك، ولا جهلا به، ولا إنكارا لاطلاعك علي، ولا استهانة بوعيدك، وإنما كان من غلبة الهوى، وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة، وطمعا في مغفرتك، واتكالا على عفوك، وحسن ظن بك، ورجاء لكرمك، وطمعا في سعة حلمك ورحمتك، وغرني بك الغرور، والنفس الأمارة بالسوء،**

وسترك المرخي علي، وأعانني جهلي، ولا سبيل إلى الاعتصام لي إلا بك، ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك، ونحو هذا من الكلام المتضمن للاستعطاف والتذلل والافتقار والاعتراف بالعجز والإقرار بالعبودية.

فهذا من تمام التوبة، وإنما يسلكه الأكياس المتملقون لربهم عز وجل، والله يحب من عبده أن يتملق إليه.

الفهرس

ثم تاب عليهم ليتوبوا

إن العبد الآبق الشارد إذا تذكر برَّ ربه، وعطفه، وجوده، وكرمه، ومسامحته، وإحسانه، وعلم أنه لا بد له منه وأنه راجع إليه وأن مصيره إليه، وأن عرضه عليه فرَّ إلى سيده من بلد عدوه، حتى وصل إلى بابه سبحانه وتعالى، فوضع خده على عتبة بابه، وتوسد ثرى أعتابه، متذللا متضرعا خاشعا باكيا آسفا، يتملق سيده ويسترحمه ويستعطفه، ويعتذر إليه، قد ألقى بيده إليه، واستسلم له، وألقى إليه زمامه، فعلم سيده ما في قلبه من الرجوع والندم والعزم على ألا يرجع، والإقلاع عما هو فيه، وترك عدوه، فعاد مكان الغضب عليه رضا عنه، ومكان الشدة عليه رحمة به، وأبدله بالعقوبة عفوا، وبالمنع عطاء، وبالمؤاخذة حلما

إصدارات أخرى للمؤلف:

- حال المؤمنين في شعبان
- حال المؤمنين في رمضان
- لعلكم تتقون
- احفظ الله يحفظك
- شرح حديث الصخرة
- العودة إلى الربانية

سلسلة الفتوحات الإلهية:

- مجلد شرح الأسماء الحسنى
- اسم الله المنان
- اسم الله القدوس
- اسم الله الشاكر والشكور
- اسم الله العفو

مسجد الهدي المحمدي

هدية اعتكاف ١٤٣٦ هـ